

الأزهر الشريف

مجمع البحوث الإسلامية

سلسلة مجمع البحوث الإسلامية

السنة التاسعة والأربعون ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م

الإسلام عقيدة وشريعة

لفضيلة الشيخ

محمود شلتوت

شيخ الأزهر الشريف الأسبق

(ت. ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣م)

دراسة وتقديم وتعليق

أ. د. محمد عمارة

إشراف

أ.د / محيي الدين عفيفي أحمد

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

شلتوت، محمود
الإسلام عقيدة وشريعة
الأزهر الشريف - مجمع البحوث الإسلامية
١- العقيدة.
٢- الشريعة.
٣- مقتضيات الاعتصام بحبل الله.
٢٠٤ ص ، ٢٠ سم
العنوان: مجمع البحوث الإسلامية - القاهرة

رقم الإيداع: ٢٠١٧/٢٧٧٧٠م

الترقيم الدولي: 978-977-205-240-0

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تصديـــــــــر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعائه واهتدى بهداه .. أما بعد،،،

فلقد كان الأزهر الشريف على مر تاريخه ـ ولا يزال ـ الحارس الأمين على الإسلام؛ عقيدةً وشريعةً وأخلاقًا، يؤدي رسالته، ويتحمل مسئوليته في المحافظة على الدين وتراثه وعلومه الشرعية والعربية وغيرها، حتى صار كعبة العلوم الدينية والعربية والثقافية في مصر والعالم، ومركز إشعاع روحي وديني وثقافي، ينشر مباديء وأخلاق الإسلام، ويوضح المنهج النبوي في مواقف الحياة المتنوعة بعيدًا عن التعصب الأعمى، أو الاضطهاد الفكري أو المادي، مراعيًا لظروف الناس وحاجاتهم، وكتب الله له القبول فتهيأت له النفوس على مدار عقود وقرون طويلة، فأصبح الجامعة الإسلامية الكبرى الفريدة في العالم بتاريخها وأهدافها ورسالتها ومنهجها ووسطيتها.

إن الأزهر الشريف يضطلع بمسئولياته ويواصل مسيرته العلمية في بيان حقائق الإسلام بمنهج وسطي معتدل يحترم التعددية الدينية والمذهبية والفكرية، ويعمل على تصحيح المفاهيم المغلوطة، لأجل حماية العقول من الغلو والتطرف والتسيب.

وانطلاقًا من هذه المسئولية كان الدور العظيم لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب في النهوض بالتبعات الملقاة على عاتق الأزهر الشريف في الداخل والخارج، ببيان حقائق الإسلام ومواجهة التطرف والإرهاب، وأهمية المجابهة الفكرية وبيان جهود الأزهر الشريف وجميع هيئاته حيث أكدّ فضيلته: أن الأزهر الشريف قد عاش أكثر من ألف عام ـ وسيظل ـ يُدرِّس المذاهب الفقهية، والمسائل الكلامية على افتراقها، والعلوم الإسلامية بمختلف أذواقها ومشاربها، لكن الأزهر قد وجد ضالته ـ منذ القدم ـ في مذهب أهل السنة والجماعة، واتخذه طوق نجاة للمسلمين كلما عضّتهم نوائب التشرذم وآفات التعصب المقيت لمذهب يراه أصحابه: هو الإسلام الذي لا إسلام غيره .. وسبيل الأزهر اليوم هو سبيله بالأمس: السعي الحثيث لجمع كلمة المسلمين، ووقوفهم صفًا واحدًا في مهب العواصف والتيارات.

إن الأزهر الشريف الذي يرفع راية «جمع الكلمة» بين المسلمين، لا يتردد في مقاومة موجات الإلحاد، والتغريب، والإفساد الأخلاقي، ولا يدخر جهدًا في مقاومة الانحراف التكفيري الطارئ، والمرفوض من جماهير الأمة الإسلامية قديمًا وحديثًا، وليس أمامه ـ من أجل تحقيق هذا الهدف ـ إلا مواصلة السعي ـ بصدق ـ لجمع علماء المسلمين على كلمة واحدة، لمواجهة الأخطار التي تهدد الجميع، ولتحقيق مصالح الأمة، ودرء المفاسد عنها، ومن دون هذا الالتقاء،

فإن النتائج لن تكون على النحو الذي نرجوه لأمتنا، وتقتضيه مصلحتها في هذه الظروف التي يمر بها العالم الآن[1].

هذا، وتتعاظم آمال وطموحات الناس حول الأزهر الشريف يومًا بعد يوم، وتتعالى صيحات النداء والفزع إليه ـ بعد الله تعالى – باعتباره الملاذ الآمن للمسلمين في العالم من الانحراف الفكري، والتطرف والإرهاب ، وقد عمل الأزهر الشريف على تلبية هذه النداءات وتحقيق الطموحات، وذلك بكل هيئاته ودواوينه ودوائره العلمية والمعرفية، ومنها: مجمع البحوث الإسلامية، الذي أسهم بجهود عظيمة في العطاء العلمي للأزهر الشريف من خلال دراسة القضايا العلمية المختلفة، إيمانًا منه بدوره العلمي في تصحيح المفاهيم الخاطئة، وبيان وسطية وسماحة الإسلام، وأهمية التيسير ورفع الحرج عن الناس.

إن ما قدمه مجمع البحوث الإسلامية ويقدمه في هذا الصدد ليؤكد جهوده الدؤبة في خدمة الحياة العلمية والعملية للمسلمين؛ في التنظيم، والتشريع، والثقافة، والحضارة، والاجتماع، والسلوك، والأحوال الشخصية، والمعاملات، وما إلى ذلك مما يدخل في صميم الحياة ومتطلباتها.

---

(١) كلمة الإمام الأكبر شيخ الأزهر أ.د/ أحمد محمد الطيب، في افتتاح مؤتمر خطورة الفكر التكفيري والفتوى بدون علم، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

إن مجمع البحوث الإسلامية وهو يؤدي دوره باعتباره هيئة علمية وبحثية وثقافية ومعرفية بالأزهر الشريف، لا ينفصم عن واقع الناس والمشكلات والتحديات التي تحيط بهم، وظهور أنماط من السلوك وألوان من المعاملات تتطلب ضرورة بيان الرأي والشرعي والديني لها؛ حتى لا ينخدع الناس بالسيىء منها، أو ينساقوا وراء الفكر المنحرف والفتاوى الشاذة التي تعاني منها مجتمعاتنا في ظل انتشار التطرف والإرهاب.

ومن المؤلم غاية الألم أن ترتكب جرائم باسم الإسلام وباسم شريعته السمحاء، وتُنفذ العمليات المدمرة مع صيحات التهليل والتكبير، ودعوى الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، الأمر الذي استغله الإعلام الغربي أسوأ استغلال في تشويه صورة الإسلام، وتقديمه للعالم بحسبانه دينًا همجيًا متعطشًا لسفك الدماء وقتل الأبرياء، وأنه يحرض أبنائه وأتباعه على العنف والكراهية والأحقاد، وللأزهر موقف واضح في هذه القضايا قام بإعلانه وبيانه كأشد ما يكون البيان وضوحًا وجلاءً.

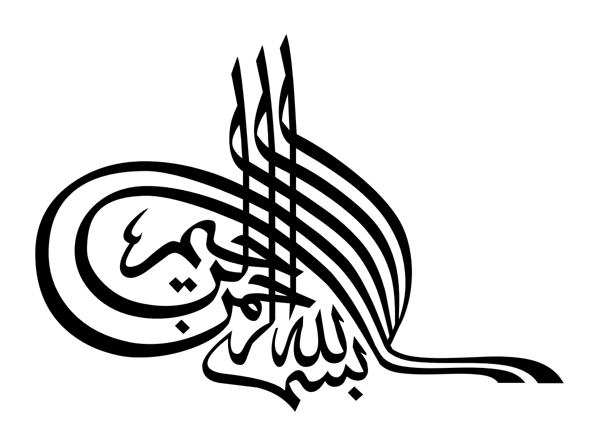
وانطلاقًا من دور المجمع ومسئولياته العلمية؛ فقد قام بإعادة طبع مجموعة من الكتب العلمية النافعة، والتي تتنوع موضوعاتها، وتلبي عددًا من احتياجات المرحلة الراهنة، حيث تشتمل هذه الكتب على قضايا ومسائل تتصل بالعقيدة، والشريعة، والأخلاق، والتفسير، وعلوم السنة النبوية، والثقافة الإسلامية في مجالاتها المختلفة؛ ليكون

الناس على بينة من أمرهم فيما يتعلق بالأمور الدينية والاجتماعية والأخلاقية، خاصة في ظل تراجع منظومة القيم الأخلاقية، وانتشار موجات التطرف والإرهاب والتكفير والإلحاد والتسيب والإنحلال، مما يستلزم معالجة هذه المسائل من خلال الفكر الوسطي الذي يعمل الأزهر الشريف على ترسيخه.

نسأل الله تعالى القبول، وأن يكون العمل خالصًا لوجهه تعالى، إنه نعم المولى ونعم النصير.

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

أ.د/ محيي الدين عفيفي أحمد


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الشيخ محمود شلتوت

(١٣١٠-١٣٨٣هـ - ١٨٩٣-١٩٦٣م)

السيرة ... والمسيرة العلمية

- في (٦ شوال ١٣١٠هـ/ ٢٣ أبريل ١٨٩٣م) ولد الشيخ محمود شلتوت، ببلدة «منية منصور»، مركز «إيتاى البارود» محافظة «البحيرة» بدلتا القطر المصرى.
- وبعد أن حفظ القرآن وجوده ـ بكتاب القرية ... على عادة السالكين طريقهم إلى العلم الدينى، التحق بمعهد الإسكندرية الدينى، التابع للأزهر الشريف (١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م) ... أى فى العام التالى لوفاة الإمام محمد عبده.

ولقد ظل محافظًا على تفوقه فى الدراسة على امتداد سنوات مراحل تعليمه بالأزهر الشريف ـ الابتدائى... والثانوى والعالى ـ فكان ترتيبه الأول دائمًا طوال سنوات دراسته حتى نال شهادة «العالمية» (١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م).

- وفى العام التالى لتخرجه (١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م) عين مدرسًا بمعهد الإسكندرية الدينى.
- وكانت كبرى ثورات الشعب المصرى ضد الاحتلال الإنجليزى قد تفجرت فى ذات العام ـ ثورة (١٩١٩م) فانخرط فيها الشيخ شلتوت، وشارك فى مظاهراتها واجتماعاتها والخطابة

والإثارة لجماهير الشعب وطلائع الثوار.

- ومع أن الشيخ محمود شلتوت لم يتتلمذ مباشرة على يد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، إلا أنه منذ فجر حياته التعليمية والعلمية، كان واحدًا من نبهاء مدرسة الأستاذ الإمام ـ مدرسة الإحياء والتجديد ـ ولقد ربطته الوشائج الفكرية وأيضًا العلاقات والصداقات بأبرز خلفاء وتلاميذ الأستاذ الإمام، وفي مقدمتهم الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي (١٢٩٨-١٣٦٤هـ/ ١٨٨١ - ١٩٤٥م) والإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبدالرازق (١٣٠٢ - ١٣٦٦هـ/ ١٨٨٥ - ١٩٤٦م) والإمام الأكبر الشيخ عبدالمجيد سليم (١٢٩٩ - ١٣٧٤هـ/ ١٨٨٢ - ١٩٥٤م) وهم من نجباء تلامذة الشيخ محمد عبده، الذين تتلمذوا على يديه، وحضروا دروسه، والذين قادوا تيار الإصلاح لمناهج وتنظيمات الأزهر الشريف... وجاهدوا لتأكيد وتدعيم استقلال الأزهر عن سلطات الدولة ونفوذ الاستعمار الإنجليزي.

ولذلك، فعندما تولى الشيخ محمد مصطفى المراغي مشيخة الأزهر ـ في (٢ من ذي الحجة ١٣٤٦هـ/ ٢٢ من مايو ١٩٢٨م) بادر فاستدعى الشيخ شلتوت، ونقله من التدريس بمعهد الإسكندرية إلى التدريس بالقسم العالي ـ الجامعة ـ القاهرة ـ وهو القسم الذي كان يرأسه علم آخر من أعلام مدرسة الإحياء والتجديد، وهو الشيخ عبدالمجيد سليم.

- وبعد ذلك، ارتقى الشيخ شلتوت إلى تدريس الفقه بأقسام التخصص بالأزهر الشريف .. وهو أعلى مستويات التدريس.
- وعندما حدثت الأزمة الشهيرة بين الشيخ المراغى ـ شيخ الأزهر ـ وبين الملك أحمد فؤاد (١٢٨٤ - ١٣٥٥هـ/ ١٨٦٩ - ١٩٣٦م) بسبب إصرار المراغى على مشروعه لإصلاح الأزهر، وتجديد مناهجه، وتنظيم كلياته وأقسامه ومعاهده، وتأكيد استقلاله... ومعارضة الملك فؤاد لهذا المشروع كان الشيخ شلتوت أول المدافعين عن مذكرة المراغى ومشروعه الإصلاحى ـ بالقلم واللسان ـ فكتب عدة مقالات بجريدة «السياسة» اليومية... وألقى العديد من الخطب فى الأساتذة والطلاب.

ولما اضطر المراغى إلى الاستقالة من مشيخة الأزهر ـ فى (٦ من جمادى الأولى ١٣٤٨هـ/ ١٠ من أكتوبر ١٩٢٩م) ـ بسبب مناوأة الملك فؤاد لمشروع إصلاح الأزهر ... وتولى المشيخة الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى (١٢٩٥ - ١٣٦٣هـ/ ١٨٨٧ - ١٩٤٤م) انخرط طلاب الأزهر وكثير من شيوخه فى ثورة كبرى وشهيرة، مطالبين بعودة المراغى إلى المشيخة، وتنفيذ مشروعه الإصلاحى ... ولقد استمرت قلاقل وأحداث وإضرابات هذه الثورة الأزهرية طوال مدة إبعاد المراغى عن المشيخة وتصاعد قمع الدولة للعلماء والطلاب الثائرين، وخاصة إبان الوزارة المستبدة التى رأسها إسماعيل صدقى باشا (١٢٩٢ - ١٣٦٩هـ/ ١٨٧٥ - ١٩٥٠م) ـ وهى الوزارة التى

ألغت دستور (١٩٢٣م)، وزيفت الانتخابات ـ فتم فصل الشيخ شلتوت من منصبه، ضمن الذين فصلوا من علماء الأزهر، في (جمادى الأولى ١٣٥٠هـ / ١٧ سبتمبر ١٩٣١م)، ويومئذ اشتغل الشيخ شلتوت بالمحاماة الشرعية ـ مع شقيق صديقه الشيخ مصطفى عبدالرازق ـ الشيخ على عبدالرازق (١٣٠٥ - ١٣٨٦هـ / ١٨٨٧ - ١٩٦٦م) الذى كان قد فصل من القضاء الشرعى (١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م) بسبب كتابه عن (الإسلام وأصول الحكم).

وظل الشيخ شلتوت مفصولاً من التدريس بالأزهر، وبعيدًا عن جامعته قرابة أربع سنوات. فلما اضطر الملك فؤاد إلى الرضوخ لإصرار علماء الأزهر، وطلابه على عودة المراغى، والمضى فى مشروع إصلاح الأزهر، وسقطت الوزارات المستبدة، أعيد الشيخ محمود شلتوت ـ وكل المفصولين ـ إلى الأزهر، مدرسًا بكلية الشريعة، فى (ذى القعدة ١٣٥٣هـ/ فبراير ١٩٣٥م) إبان وزارة توفيق نسيم باشا (١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م) .. وبعد أقل من شهرين عاد الشيخ المراغى إلى مشيخة الأزهر ـ فى (المحرم ١٣٥٤هـ/ ٢٧ أبريل ١٩٣٥م).

- وتحت قيادة المراغى للأزهر الشريف وفى ظل مشروعه الإصلاحى لهذه الجامعة الأعرق ـ بدأ الأزهر يتواصل مع المحافل والمؤتمرات العلمية العالمية، مبلغًا دعوة الإسلام، بمنطق جديد، وملقيًا الأضواء على مميزات وامتيازات الإسلام، وما لديه من حلول للمشكلات الإنسانية ... فشارك

فـى مؤتمـر تاريخ الأديـان الدولى ـ السـادس المنعقد بمدينة «بروكسـل» فى (جمادى الآخرة سـنة ١٣٥٤هـ/ ١٦ - ٢٠ سـبتمبر سـنة ١٩٣٥م) ـ ومثَّله فـى هذا المؤتمر الشـيخان مصطفى عبدالرازق وأمين الخولى ... وعندما انعقدت الدورة الثانية لمؤتمر القانون الدولى المقارن ـ بلاهاى ـ هولندا ـ فى (جمادى الآخرة سنة ١٣٥٦هـ/ أغسطس سنة ١٩٣٧م) ورأس وفـد مصر الفقيه والقانونـى الدكتور عبدالرازق السـنهورى، اختار المراغى الشـيخ محمود شـلتوت ممثـلاً للأزهر فى هذا المؤتمر العالمى، فقدم للمؤتمر دراسته العلمية المتميزة عن (المسئولية المدنية والجنائية فى الشريعة الإسلامية)[١].

وكانت هذه الدراسة هى التى تقدم بها ـ بعد ذلك ـ إلى «هيئة كبـار العلماء» (١٣٦٠هـــ/ ١٩٤١م) فنال بهـا عضوية الهيئة وكان يومئـذ أصغـر الأعضاء سـناً فى هيئـة كبار العلمـاء أعلى هيئات العالم الإسلامى فى العالم الإسلامى.

- وبعد ذلك عين الشـيخ شـلتوت فـى «لجنة الفتـوى» بالأزهر الشريف.
- ولقـد تبـدى حـرص الشـيخ المراغى علـى أن يكون الشـيخ شـلتوت دائمًـا وأبـدًا فى الموقع الـذى يمارس منـه وفيه دفع مسـيرة الإصلاح والتجديد فـى الأزهر الشـريف، عندما رقى

(١) انظرها فى كتابه: الإسـلام عقيدة وشريعة (ص ٣٩٢-٤٢٩) طبعة دار الشروق، القاهرة، سنة (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

الشـيخ شلتوت من مدرس بكلية الشريعة إلى مفتش بالمعاهد الدينية ـ سنة (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م) ـ فأعـاده المراغى إلى القسم العالى ـ الجامعة ـ وكيلاً لكلية الشريعة، ليشرف على خطة الإصلاح فيها.

- وعندما تبوأ موقعه بين «هيئة كبار العلماء» سـنة (١٣٦٠هـ) سـنة (١٩٤١م)، تقدم إلى هذه الهيئة باقتراح جامع «لجدول أعمال» الاجتهاد الإسـلامى المعاصر فى أربعة ميادين، وذلك باقتراح:

١ – إنشاء مكتب علمى لجماعة المسلمين، مهمته رصد الهجوم على الإسلام، والرد على هذا الهجوم، تبليغًا للدعوة، وإقامة للحجة، وإزالة للشبهة عن عقيدة وشريعة وحضارة الإسلام.

٢ – وبحث المعاملات المسـتجدة، لاسـتنباط الأحكام الفقهية الجديدة لهذه المعاملات التى لم تعرفها عصوره واجتهادات القدماء.

٣ – ووضـع كتـاب عن الإسـرائيليات فـى التفاسـير المتداولة للقرآن الكريم، لتنقية هذه التفاسـير من تلك الإسرائيليات التى تغرق العقل المسلم فى الضلالات.

٤ – وتنقية الكتب الدينية من البدع والخرافات.

ولقـد تبنت «هيئة كبـار العلماء» هـذه المقترحات وتألفت لتحقيق هذه المقاصد لجنة رأسها الشيخ عبدالمجيد سليم، وكان الشيخ شلتوت أحد أعضائها.

- وفى سنة (١٣٦٥هـ) سـنة (١٩٤٦م) اختير الشيخ محمود شـلتوت «عضـوًا بمجمع اللغـة العربية» وذلك ضمن عشـرة أعضاء مثلوا قمم العلم والفكر فى ذلك التاريخ، حتى سماهم الأستاذ أحمد أمين (١٢٩٥ - ١٣٧٣هـ/ ١٨٧٨-١٩٥٤م) ـ فى حفل اسـتقبال المجمع لهم ـ بـ«العشـرة الطيبة» ـ وهم ـ غير شـلتوت ـــ الدكتور إبراهيم بيومـى مدكور (١٣٢٠ - ١٤١٦هـ/ ١٩٠٢ - ١٩٩٥م) والدكتـور عبدالوهاب عزام، والدكتـور أحمـد زكـى (١٣١٢هــ - ١٣٩٥هــ/ ١٨٩٤ - ١٩٧٥م) والدكتور مصطفى نظيـف (١٣١٠هـ/ ١٨٩٣م) والشـيخ عبدالوهاب خلاف، والأسـتاذ محمد فريد أبو حديد (١٣١٠ - ١٣٨٧هـ/ ١٨٩٣ - ١٩٦٧م).
- ثم انتدبت جامعة القاهرة الشـيخ شـلتوت لتدريس مادة «فقه القرآن والسـنة» لطـلاب «دبلوم» الشـريعة الإسـلامية بكلية الحقوق.
- وفى سـنة (١٣٦٩هـ) سـنة (١٩٥٠م)، وأثناء تولى الشـيخ عبدالمجيد سـليم مشيخة الأزهر ـ عين الشيخ شلتوت مراقبًا عامًا لمراقبة البحوث والثقافة الإسلامية بالأزهر الشريف.
- وفى سنة (١٣٧٦هـ) سنة (١٩٥٧م)، وفى ظل انفتاح الثورة المصريـة على الدائرة الإسـلامية، من خـلال منظمة المؤتمر الإسـلامى ـ التى تولى أمانتهـا عضو مجلس الثورة محمد أنور السـادات (١٣٣٧ - ١٤٠١هـ/ ١٩١٨ - ١٩٨١م) ـ اختار

السادات الشيخ شلتوت مستشارًا لمنظمة المؤتمر الإسلامى، لما لفكره وعلاقاته من أهمية وفاعلية فى التواصل مع شعوب ومذاهب الأمة الإسلامية.

- وبعد تولى الشيخ شلتوت لمنصب وكيل الجامع الأزهر، أخذت كثير من الهيئات والمنظمات والمؤسسات تسعى إلى الاستفادة من علمه وتوجيهاته وخبراته واجتهاداته، ومن نشاطه الجم. فأصبح عضوًا باللجنة العليا للعلاقات الثقافية الخارجية وعضوًا فى مجلس الإذاعة الأعلى .. وعضوًا باللجنة العليا لمعونة الشتاء .. ورئيسًا للجنة العادات والتقاليد بوزارة الشئون الاجتماعية .. وعضوًا مؤسسًا لـ «دار التقريب بين المذاهب الإسلامية» وواحدًا من أبرز كتاب مجلتها «رسالة الإسلام» وكانت فتواه الشهيرة بجواز التعبد على فقه المذهب الجعفرى، كواحد من المذاهب الفقهية الثمانية الموثقة ـ المالكى، والشافعى، والحنفى، والحنبلى، والجعفرى، والزيدى، والإباضى، والظاهرى ـ من إنجازاته المتميزة فى ميدان التقريب بين السنة والشيعة وترتب على ذلك احتضان الأزهر الشريف ـ وهو أقدم وأعرق وأكبر جامعات العالم الإسلامى ـ جميع هذه المذاهب فى التدريس والإفتاء.
- وفى (٢٩ ربيع الأول سنة ١٣٧٨هـ/ ١٣ أكتوبر سنة ١٩٥٨م) تولى الشيخ محمود شلتوت منصب الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر ـ ومن موقعه ـ كشيخ للأزهر ـ بدأ خطواته

لتحقيق المشاريع الإصلاحية والتجديدية، التى طمح إليها ولم يتمكن من تحقيقها حتى ذلك التاريخ .. ومن ذلك مشروع إنشاء «مجمع البحوث الإسلامية» الذى أراده الهيئة العلمية العليا الجامعة لكبار علماء الأمة الإسلامية على اختلاف أقطارهم ومذاهبهم ـ وهو المشروع الذى سبق واقترحه عندما عين وكيلاً للأزهر ـ وكان إنشاء هذا «المجمع» ضمن هياكل مشروع تطوير الأزهر، الذى صدر به القانون رقم (١٠٣) لسنة (١٩٦١م)...

وهو التطوير الذى حلم به الشيخ شلتوت، وتيار الإصلاح الذى بدأه الإمام محمد عبده ـ والذى تغيَّا تخريج علماء يجمعون بين علوم الدين وعلوم الدنيا، ودعاة للإسلام يجمعون إلى فقه الدعوة حذق العلوم التقنية والإدارية الحديثة والعصرية واللغات الأجنبية، وذلك لمواجهة حركات التنصير ـ وخاصة فى أفريقيا وآسيا ـ تلك التى جمع قساوستها وجمعت مدارس إرسالياتها بين علوم اللاهوت وتقنيات العصر وعلومه، فامتلك خريجوها المتنصرون زمام الدول ومؤسساتها، بينما وقف المسلمون ـ هناك ـ بأبنائهم عند «الكتاتيب» و «الخلاوى» مكتفين بحفظ القرآن وشىء من الفقه والتفسير والحديث تاركين الدولة ومؤسساتها للأقليات النصرانية، وذلك خوفًا على عقيدتهم من التنصير الذى اقترن التبشير به بدراسة علوم الإدارة والتقنيات الحديثة فى مدارس الإرساليات التنصيرية!.

فجاء قانون التطوير للأزهر ـ الذى رعاه الشيخ شلتوت والذى وضع مواده، وكتب مذكرته الإيضاحية واحد من أبرز الغيورين على الإسلام وفكره وتراثه، هو الأستاذ محمد سعيد العريان (١٣٢٣ - ١٣٨٤هـ/ ١٩٠٥ - ١٩٦٤م) ـ ليجعل الأزهر مؤسسة الإسلام العالمية الكبرى، وليجعل جامعته ـ بكلياتها الشرعية والمدنية ـ المنبع الذى يلبى احتياجات المسلمين فى علوم الدين والدنيا ... فجاء فى المادة الثانية من هذا القانون ـ عند الحديث عن رسالة الأزهر:

«الأزهر هو الهيئة الإسلامية الكبرى التى تقوم على حفظ التراث الإسلامى ودراسته، وتجليته ونشره وتحمل أمانة الرسالة الإسلامية إلى كل الشعوب، وتعمل على إظهار حقيقة الإسلام وأثره فى تقدم البشر، ورقى الحضارة، وكفالة الأمن والطمأنينة وراحة النفس لكل الناس فى الدنيا والآخرة. كما تهتم ببعث الحضارة العربية والتراث العلمى والفكرى للأمة العربية وإظهار أثر العرب فى تطور الإنسانية وتقدمها. وتعمل على رقى الآداب وتقدم العلوم والفنون وخدمة المجتمع والأهداف القومية والإنسانية والقيم الروحية، وتزويد العالم الإسلامى والوطن العربى بالمختصين وأصحاب الرأى فيما يتصل بالشريعة الإسلامية والثقافة الدينية والعربية ولغة القرآن، وتخريج علماء عاملين متفقهين فى الدين، يجمعون إلى الإيمان بالله والثقة بالنفس وقوة الروح، كفاية علمية وعملية ومهنية، لتأكيد الصلة

بين الدين والحياة، والربط بين العقيدة والسلوك، وتأهيل عالم الدين للمشاركة فى أسباب النشاط والإنتاج والريادة والقدوة الطيبة للمشاركة فى الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة. كما تهتم بتوثيق الروابط الثقافية والعلمية مع الجامعات والهيئات العلمية الإسلامية والعربية والأجنبية».

كما جاء فى المذكرة الإيضاحية لقانون التطوير هذا مبادئ عدة؛ منها:

«أولاً: أن يبقى الأزهر، وأن يدعم ليظل أكبر جامعة إسلامية وأقدم جامعة فى الشرق والغرب.

ثانيًا: أن يظل كما كان منذ أكثر من ألف سنة حصنًا للدين والعروبة، يرتقى به الإسلام، ويتجدد ويتجلى فى جوهره الأصيل، ويتسع نطاق العلم به فى كل مستوى وفى كل بيئة، ويذاد عنه كل ما يشوبه وكل ما يُرمى به».

● وكنتيجة لهذا القانون ـ (١٠٣) لسنة (١٩٦١م):

- دخلت الفتيات الأزهر، وانتظمن فيه بأعداد غفيرة ـ فى جميع مراحل دراساته ـ لأول مرة فى التاريخ.
- وأنشئ «مجمع البحوث الإسلامية» ـ الشكل الجديد «لجماعة كبار العلماء».
- وأنشئت «مدينة البعوث الإسلامية»، لتمثل الأممية الإسلامية الجامعة لأكثر من ثمانين جنسية من جنسيات الشعوب والأقطار الإسلامية.

- وأنشـئ «معهد البعوث الإسلامية» ـ معهد الإعداد والتوجيه ـ الذى يؤهل الطلاب غير العرب للدراسة باللغة العربية.
- ودرست اللغات غير العربية ـ أوروبية وشرقية ـ بالأزهر.
- ودرس القانون المقارن فى كليات الشريعة بجامعة الأزهر.

  وأصبح اسم هذه الكليات «الشريعة والقانون».
- ودرس فقه الشـيعة إلى جوار فقه المذاهب السنية، والمذاهب الفقهية الموثقة مصادرها.
- وأصبحت المعاهد الدينية ـ الابتدائية، والإعدادية.. والثانوية ـ تغطى كل قرى مصـر ـ التى تقترب من تسـعة آلاف بعد أن كان عددها ـ فى جيلنا ـ لا يبلغ عدد أصابع اليدين!.
- كمـا أصبحت كليـات جامعة الأزهـر تغطى سـائر محافظات مصر، وتمتد لترتفع مناراتها فى الكثير من الأقطار الخارجية، الشرقية منها والغربية.
- وكان الشيخ شلتوت هو صاحب الرؤية والفكر اللذين تجسدا فى هذا الإنجاز الكبير.

● وإذا كان «واقع» تطوير الأزهر الشـريف لم يرتق إلى مسـتوى «آمال» الشـيخ شـلتوت من ورائه ... فإن مـرد ذلك عائد إلى «قصـور» الذيـن قاموا بـ«التطبيق والتنفيذ» ـ الدولة التى لا خبرة لها بهذا الحقل من حقول العلم والتعليم، والتى لم تكن تثق بنوايا شيوخ الأزهر تجاه توجهها إلى «الاشتراكية العلمية»

التى رفعت شعاراتها فى ذات السنوات التى بدأت فيها مسيرة التطوير .. وشيوخ الأزهر، الذين لم يتحمس الكثيرون منهم لهذا التطوير، لسوء ظنهم برجالات الثورة، واتجاهاتهم الاشتراكية .. فانعكس سوء الظن هذا على مقاصد الدولة من وراء التطوير !

- بل إن المفارقة قد بلغت حد المأساة، عندما أصبح الشيخ شلتوت ذاته وهو روح التطوير وداعيته وراعيه ... أول ضحايا قانون التطوير !... حتى لقد انتهت حياته بمأساة اقترفتها «البيروقراطية» والأثرة فى الاختصاصات الإدارية وذلك عندما استأثر «وزير شئون الأزهر» .. وكان عالمًا فاضلاً ـ بكل السلطات الإدارية فى الأزهر .. وناصره فى هذا الاستئثار قسم الفتوى بمجلس الدولة ـ انطلاقًا من نصوص قانون التطوير، التى أرادت لمنصب شيخ الأزهر أن يكون دينيًا فقط ولا علاقة له بالسلطات الإدارية فى الأزهر ـ حتى إدارة مكتبه !.. فخاض الشيخ شلتوت معركة صامتة، تحلى فيها بالصبر والشجاعة، ضد هذا العدوان على سلطات مشيخة الأزهر .. وكتب مذكرات شجاعة إلى رئيس الجمهورية ـ جمال عبدالناصر (١٣٣٦ - ١٣٩٠هـ/ ١٩١٨ - ١٩٧٠) وإلى رئيس مجلس الوزراء ـ على صبرى ـ مثلت ـ ولا تزال ـ صفحات فى كتاب الشجاعة والكرامة والشموخ.

فلمـا هزمته الأثرة والبيروقراطية، والتطبيق الجامد والحرفى للقانون . . قدم اسـتقالته الشـجاعة من مشـيخة الأزهر فى (١٦ ربيع الأول سـنة ١٣٨٣هـ/ ٦ أغسطس سـنة ١٩٦٣م) . . وجاء فى كتاب استقالته ـ الذى بعث به إلى الرئيس جمال عبدالناصر، عن أسباب هذه الاستقالة :

« . . . إلى أن أسـندت وزارة شـئون الأزهر إلى السـيد الدكتور محمد البهى، فسـار بها فى طريق لا يتفق مع رسـالة الأزهر، وما يبتغيـه طلاب الإصلاح له، حتـى مس كيانه، وصدع بنيانه، وفى هـذه الفتـرة الأخيـرة، التى جاوزت العشـرة شـهور، ظللت من جانبـي أحاول علاج ما ترتب على طريق سـيره من مشـكلات، وأدفـع بقدر الاسـتطاعة عن حرمة الأزهر وحمـاه ولم أدع فرصة إلا التجـأت فيها إلى المختصين عسـى أن يهيئ الله من الظروف ما يسـتقيم معه المعوج وينصلح به الفاسـد . ولكن الأمور أفلت زمامها من يدى، وانتقلت من سـيئ إلى أسوأ، حتى تحول الأزهر فعلاً عن رسالته، ولم يصبح لمشيخة الأزهر وجود أو كيان .

وإزاء هذه الظروف السـابقة المتجمعة، أجد نفسى أمام واحد من أمرين :

- إما أن أسـكت على تضييع أمانة الأزهر ـ وهو ما لا أقبله على ديني وكرامتي .
- وإمـا أن أتقدم آسـفًا فى هذه الظروف بطلـب إعفائى من حمل هذه الأمانة التى أعتقد عن يقين أنكم تشـاركوننى المسئولية

فى حملها أمــام الله والتاريخ ، ولذلك ، فليس أمامى إلا أن أضع استقالتى من مشيخة الأزهر بين يديكم بعد أن حيل بينى وبين القيام بأمانتها .

والله أســأل أن يديــم عليكــم نعمة التوفيق فــى خدمة العروبة والإسلام ، وأن ينهض الأزهر فى عهدكم حتى يظل للإسلام حصنًا وللوطن وللمسلمين فى مختلف الأقطار خيرًا وبركة . . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

- وما لبث الشــيخ محمود شلتوت أن أصابه المرض ـ كما سبق وحــدث للإمام محمد عبده . . . عندمــا حيل بينه وبين إصلاح الأزهر ـ فتوفى الشــيخ شلتوت بعد خمســة أشهر من تقديمه الاستقالة . . وصعدت روحه المطمئنة إلى بارئها راضية مرضية فى (٢٧ رجب ســنة ١٣٨٣هـ/ ١٣ ديســمبر ١٩٦٣م) ، فى ذكرى الإســراء والمعراج . . بعد عمر امتد ســبعين عامًا ، كان فيها منارة سامقة للاستنارة والإصلاح والاجتهاد والتجديد .
- ولقد كان الشيخ شلتوت من طلائع أئمة الأزهر ، الذين تجاوزت شهرتهم وطن العروبة وعالم الإسلام .

– فمنح الدكتوراه الفخرية من جامعة « شيلى » ـ بأمريكا اللاتينية ـ سنة (١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م) .

– ومنــح الدكتــوراه الفخرية ـ أيضًا ـ من جامعــة جاكارتا ـ أكبر جامعات كبرى الدول الإسلامية .

- كما منح وسام العرش المغربى ـ من الملك محمد الخامس (١٣٢٧ - ١٣٨٠هـ/ ١٩٠٩ - ١٩٦١م) ـ سنة (١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م).

● كذلك، ترك الشيخ شلتوت ـ غير الشجاعة فى الحق .. والنموذج الخلقى الرفيع ... والإنجازات العلمية الكبيرة والنشاط الفكرى والدعوى والاجتماعى ـ ذخيرة من الأعمال العلمية التى ضمت مشروعه الفكرى فى الاجتهاد والتجديد.

من أهم هذه الأعمال العلمية:

١ - فقه القرآن والسنة.

٢ - مقارنة المذاهب.

٣ - يسألونك (وهى إجابات عن أسئلة إذاعية).

٤ - منهج القرآن فى بناء المجتمع.

٥ - المسئولية المدنية والجنائية فى الشريعة الإسلامية.

٦ - القرآن والقتال.

٧ - القرآن والمرأة.

٨ - تنظيم العلاقات الدولية فى الإسلام.

٩ - الإسلام والوجود الدولى للمسلمين.

١٠ - تنظيم النسل.

١١ - رسالة الأزهر.

١٢ - إلى القرآن الكريم.

١٣ - الإِسلام عقيدة وشريعة ـ طبعة دار الشروق ـ العاشرة ـ القاهرة سنة (١٤٠٠هـ) سنة (١٩٨٠م).

١٤ - من توجيهات الإِسلام ـ طبعة دار الشروق ـ السابعة ـ القاهرة سنة (١٤٠٠هـ) سنة (١٩٨٠م).

١٥ - الفتاوى ـ طبعة دار الشروق ـ العاشرة ـ سنة (١٤٠٠هـ) سنة (١٩٨٠م).

١٦ - تفسير القرآن الكريم ـ (العشرة أجزاء الأولى) ـ طبعة دار الشروق ـ السابعة ـ (١٣٩٩هـ) سنة (١٩٧٩م).

ولقد ضمت طبعة دار الشروق لكتبه الأربعة الأخيرة أغلب دراساته الأخرى ... فكأنها قريبة من أعماله الفكرية الكاملة.

● تلك هى أبرز معالم هذه السيرة العطرة ... والمسيرة العلمية الخصبة لهذا الإِمام العظيم ـ الشيخ محمود شلتوت ـ عليه رحمة الله ...[٢].

دكتور محمد عمارة

(٢) انظر فى وقائع سيرة الشيخ شلتوت: على عبدالعظيم: مشيخة الأزهر (٢/ ١٧٩-٢٤٣)، طبعة القاهرة، سنة (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).

تمهيـــد

ما هو الإسلام؟

١ – الإسلام هو دين الله –تعالى– الذى أوصى بتعاليمه فى أصوله وشـرائعه إلى النبى محمد ﷺ، وكلفـه بتبليغه للناس كافة ودعوتهم إليه.

وقد تلقى فيه محمد عن ربه القرآن الكريم، فبلغه كما تلقاه، وبين بأمر الله –تعالى– وإرشاده مجمله، وطبق بالعمل نصوصه، ثـم تلقاه عنه الناس جيلًا بعد جيـل، كما تلقاه هو عن ربه، حتى وصل إلينا ـ كما نزل ـ متواترًا لا ريب فيه.

القرآن كتاب الله -تعالى- :

٢– وقـد قامـت الحجة القاطعـة عند من نظر فى القـرآن، وعرف أسـلوبه، وتدبـر معناه ومحتوياتـه، ثم أحاط بنشـأة محمد، والبيئـة التـى نبـت منها وتقلب فيهـا، على أنـه لا يمكن أن يكـون من صنع محمد، ولا من صنع بشـر تلقاه عنه، وبذلك آمـن من يخضع قلبـه للحق بأنه من الله –تعالـى– ، أوحاه إلى محمد الـذى اصطفاه رسـولًا، وبلغه محمـد ﷺ إلى الناس، وكان القـرآن بذلـك عند من آمنـوا به مصـدرًا لعقائد الدين، ولأصول أحكامه وشرائعه.

وقـد سـجل الله –تعالـى– فى القرآن نفسـه عجز البشـر عن الإتيان بمثله، ودل عليه واقعهم الذى فشلت فيه محاولة الإتيان

بمثله، وجابه المعرضين عنه بالعجز الدائم المستمر فقال:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٣ - ٢٤)

وقال:

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

(الإسراء: ٨٨)

الفهم الإنسانى للإسلام ليس دينًا يلتزم:

٣- وقد اتصلت بالقرآن ـ بعد أن التحق محمد بربه ـ أفهام العلماء والأئمة فيما لم يكن من آياته نصًّا فى معنى واحد[٣]؛ ومن هذا الجانب اتسع ميدان الفكر الإنسانى، وكثرت الآراء والمذاهب فى النظريات والعمليات، لا على أنها دين يلتزم، وإنما هى آراء وأفهام فيما هو من القرآن محتمل للآراء والأفهام، يرد فيها كل ذى رأى منها رأيه إلى الدلالة التى فهمها هو من النص القرآنى، بمعونة ما صح عنده من أقوال الرسول ﷺ وأفعاله، أو من القواعد العامة التى ترمى إليها

(٣) وكان المسلمون فى حياة الرسول فى غنًى عن هذا برجوعهم إليه وتعرفهم المراد منه ﷺ.

روح الدين عامة، وهذا الصنيع لم يكن من هؤلاء الأئمة وفى معتقدهم إلا اجتهادًا فرديًا، لا يوجب واحد منهم على أحد من الناس أن يتبعه، بل تركوا لغيرهم ممن له أهلية الفهم حرية التفكير والنظر.

٤- أما العقائد الأصلية كالإيمان بالله -تعالى- واليوم الآخر، وأصول الشريعة كوجوب الصلاة والزكاة وحرمة النفس والعرض والمال، فإن نصوصها جاءت فى القرآن بينة واضحة لا تحتمل اجتهادًا ولا إفهامًا.

ومن هنا كثرت الآراء والمذاهب فيما يتصل بالفروع التابعة(٤) للعقائد الأصلية وفيما يتصل بالعمليات التابعة(٥) لأصول الشرائع والأحكام.

سماحة الإسلام:

٥- وإذا دلت طبيعة الإسلام هذه على شىء فإنما تدل على أنه دين يتسع للحرية الفكرية العاقلة، وأنه لا يقف -فيما وراء عقائده الأصلية وأصول تشريعه- على لون واحد من التفكير، أو منهج واحد من التشريع، وقد كان -بتلك الحرية- دينًا، يساير جميع أنواع الثقافات الصحيحة، والحضارات النافعة

---

(٤) مثل زيادة صفات الله عن ذاته، وخلق العبد لأفعاله الاختيارية، ورؤية الله بالبصر فى الآخرة، ووجوب الصلاح والأصلح على الله ونحوها.

(٥) مثل الفروع الاجتهادية كمسح ربع الرأس، أو كله فى الوضوء.

التى يتفتق عنها العقل البشرى فى صلاح البشرية وتقدمها مهما ارتقى العقل ونمت الحياة.

الإسلام عقيدة وشريعة:

٦- تلقى محمد عن ربه الأصل الجامع للإسلام فى عقائده وتشريعه، وهو القرآن الكريم، وكان القرآن عند الله -تعالى- وعند المسلمين المصدر الأول فى تعرف التعاليم الأساسية للإسلام، ومن القرآن عرف أن الإسلام له شعبتان أساسيتان لا توجد حقيقته ولا يتحقق معناه إلا إذا أخذت الشعبتان حظهما من التحقق والوجود، فى عقل الإنسان وقلبه وحياته، وهاتان الشعبتان هما: العقيدة والشريعة.

(أ) العقيدة:

والعقيدة هى الجانب النظرى الذى يطلب الإيمان به أولاً وقبل كل شىء إيمانًا لا يرقى إليه شك ولا تؤثر فيه شبهة، ومن طبيعتها: تضافر النصوص الواضحة على تقريرها، وإجماع المسلمين عليها من يوم أن ابتدأت الدعوة مع ما حدث بينهم من اختلاف بعد ذلك فيما وراءها، وهى أول ما دعا إليه الرسول ﷺ وطلب من الناس الإيمان به فى المرحلة الأولى من مراحل

(٦) هى المرحلة التى قام بها من مبدأ الرسالة إلى نهاية وجوده فى مكة، وتتجلى عناصر تلك الدعوة فى السور المكية كلها، وقد عنيت السور المكية ببيان ذلك كله، وأصبحت هى المصدر الأول للعلم والإيمان.

الدعوة[٦]، وهى دعوة كل رسول جاء من قِبَل الله -تعالى- ، كما دل على ذلك القرآن فى حديثه عن الأنبياء والمرسلين.

(ب) الشريعــة:

والشريعة هى النظم التى شرعها الله -تعالى- أو شرع أصولها ليأخـذ الإنسـان بها نفسـه فى علاقتـه بربه[٧]، وعلاقتـه بأخيه المسـلم[٨]، وعلاقته بأخيه الإنسـان[٩]، وعلاقتـه بالكون[١٠]، وعلاقته بالحياة[١١].

العقيدة والشريعة فى تعبير القرآن:

٧- وقد عبر القرآن عن العقيدة بـ«الإيمـــان»، وعــن الشريعـة بـ«العمل الصالح»، وجاء ذلك فى كثير من آياته الصريحة:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴾ (الكهف: ١٠٧، ١٠٨)

﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ

(٧) وسبيلها أداء الواجبات الدينية كالصلاة والصوم.

(٨) وسبيلها تبادل المحبة والتناصر على الدوام والأحكام الخاصة بتكوين الأسرة والميراث.

(٩) وسبيلها التعاون فى تقدم الحياة العامة، والسلم العام.

(١٠) وسبيلها حرية البحث والنظر فى الكائنات، واستخدام آثارها فى رقى الإنسان.

(١١) وسبيلها التمتع بلذائذ الحياة الحلال دون إسراف أو تقشف.

طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

(النحل : ٩٧)

﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾

(العصر : ١- ٣)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(الأحقاف : ١٣)

ومن هنا لم يكن الإسلام عقيدة فقط، ولم تكن مهمته تنظيم العلاقة بين الإنسان وربه فقط، وإنما كان عقيدة، وكان شريعة توجه الإنسان إلى جميع نواحى الخير فى الحياة.

العقيدة أصل، والشريعة فرع:

٨- والعقيدة فى الوضع الإسلامى هى الأصل الذى تبنى عليه الشريعة، والشريعة أثر تستتبعه العقيدة، ومن ثم فلا وجود للشريعة فى الإسلام إلا بوجود العقيدة، كما لا ازدهار للشريعة إلا فى ظل العقيدة؛ ذلك أن الشريعة بدون العقيدة عُلْوٌ ليس له أساس، فهى لا تستند إلى تلك القوة المعنوية التى توحى باحترام الشريعة، ومراعاة قوانينها، والعمل بموجبها دون حاجة إلى معونة، أى قوة من خارج النفس.

صلة العقيدة بالشريعة:

٩- وإذًا فالإِسلام يحتم تعانق الشريعة والعقيدة، بحيث لا تنفرد إحداهما عن الأخرى، على أن تكون العقيدة أصلًا يدفع إلى الشريعة، والشريعة تلبية لانفعال القلب بالعقيدة، وقد كان هذا التعلق طريق النجاة والفوز بما أعد الله -تعالى- لعباده المؤمنين.

وعليه فمن آمن بالعقيدة وألغى الشريعة أو أخذ بالشريعة وأهدر العقيدة لا يكون مسلمًا عند الله -تعالى- ، ولا سالكًا في حكم الإِسلام سبيل النجاة.

المساواة بين بنى الإنسان بالنسبة للإسلام:

١٠- هذا هو الإِسلام، ويستوى فيه ـ بالنظر إلى عقيدته وشريعته ـ جميع بنى الإِنسان، تطالب به جميع الأجناس والطوائف، دون نظرٍ إلى ما بينهم من فروق شخصية، كذكورة وأنوثة، وبياض وسواد، أو فروق اجتماعية كرئاسة ومرءوسية، وحاكمية ومحكومية، وغنى وفقر. ودرجات القرب من الله -تعالى- تتبع درجات القوة فى الإِيمان والاستقامة على الشريعة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ (الحجرات: ١٣)

﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴾[١٢] (النساء: ١٢٣، ١٢٤)

مساواة المرأة للرجل فى المسئولية الدينية:

١١- وقد تضمن هذا أن الإسلام يرى أن مسئولية المرأة من الوجهة الدينية كمسئولية الرجل سواء بسواء، يكلف بالعقيدة وتكلف هى أيضًا بالعقيدة، ويطالَب بالعمل الصالح وتطالَب هى أيضًا بالعمل الصالح.

وتضمن أن مسئوليتها فى ذلك مسئولية مستقلة عن مسئولية الرجل، لا يؤثِّر عليها - وهى صالحة - فسادُ الرجل وخللُ عقيدته، ولا ينفعها صلاح الرجل وهى فاسدة العمل فاسدة العقيدة، فلكل من الرجل والمرأة جزاء ما اكتسب من خيرٍ أو

(١٢) وقد نزلتا قطعا لأمل النجاة بمجرد الانتساب إلى رسول معين.

شرٍّ، وفيما قص الله -تعالى- علينا من ذلك قوله تعالى:

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (التحريم: ١٠، ١١)

القسم الأول

العقيـــدة

وكما يقرر القرآن استقلال كل من المرأة والرجل فى المسئولية الدينية، يقرره بين الوالد وولده متى بلغ الولد درجة العقل والرشد:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ (لقمان: ٣٣)

الباب الأول
العقائد الأساسية فى الإسلام

١- والعقائد الأساسية التى طلب الإسلام الإيمان بها وكانت العنصر الأول من عناصره هى:

أولًا: وجودُ الله -تعالى- ووحدانيته، وتفردُه بالخلق والتدبير والتصرف، وتنزُّهُه عن المشاركةِ فى العزة والسلطان، والمماثلةِ فى الذات والصفات، وتفردُه باستحقاق العبادة والتقديس، والاتجاهُ إليه بالاستعانة والخضوع، فلا خالق غيره، ولا مدبر غيره، ولا يماثله مما سواه شىءٌ، ولا يشاركه فى سلطانه وعزته شىءٌ، ولا تخضع القلوب وتتجه إلى شىء سواه:

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (الإخلاص)

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام: ١٤)

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (الأنعام: ١٦٢ - ١٦٤)

ثانيًا: إن الله -تعالى- يصطفى من عباده من يشاء، ويحمِّله رسالته - عن طريق ملائكته ووحيه إلى خلقه - ثم يبعثه إليهم رسولًا يبلغهم، ويدعوهم إلى الإيمان والعمل الصالح. ومن هنا وجب الإيمان بجميع رسله الذين قصهم علينا من نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ.

ثالثًا: الإيمان بالملائكة «سفراء الوحى بين الله -تعالى- ورسله» وبالكتب «رسالات الله -تعالى- إلى خلقه».

رابعًا: الإيمان بما تضمنته هذه الرسالات من يوم البعث والجزاء «الدار الآخرة» ومن أصول الشرائع والنظم التى ارتضاها الله -تعالى- لعباده، مما يناسب استعدادهم، وتقضى به مصالحهم، على الوجه الذى يكونون به مظهرًا حقًا لعدله ورحمته وجلاله وحكمته.

كلمة الشهادة تجمع عقائد الإسلام وأصول شرائعه:

٢- وقد جعل الإسلام عنوان تحقق هذه العقائد عند الإنسان الشهادة بأن الله -تعالى- واحد، وأن محمدًا رسوله «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله». وكانت تلك الشهادة هى المفتاح الذى يدخل به الإنسان فى الإسلام، وتجرى عليه أحكامه.

فالشهادة بوحدانية الله -تعالى- تتضمن كمال العقيدة فى الله -تعالى- من جهتى الربوبية «الخلق والتربية» والألوهية «العبادة».

والشهادة برسالة محمد ﷺ تتضمن التصديق بكمال العقيدة فى الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر وأصول الشريعة والأحكام:

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ ﴾

(البقرة: ٢٨٥)

﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾

(البقرة: ١٧٧)

الحد الفاصل بين الإسلام والكفر :

٣- وعليه ؛ فمن لم يؤمن بوجود الله -تعالى- ، أو لم يؤمن بوحدانيته وتنزهه عن المشابهة والحلول والاتحاد ، أو لم يؤمن بتفرده بتدبير الكون والتصرف فيه ، واستحقاق العبادة والتقديس ، واستباح عبادة مخلوقٍ ما من المخلوقات ، أو لم يؤمن بأن لله رسالات إلى خلقه ، بعث بها رسله ، وأنزل بها كتبه عن طريق ملائكته ، أو لم يؤمن بما تضمنته الكتب من الرسل ، أو فرَّق بين الرسل الذين قص علينا فآمن بالبعض وكفر بالبعض ، أو لم يؤمن بأن الحياة الدنيا تفنى ويعقبها دار أخرى هى دار الجزاء ودار الإقامة الأبدية ، بل اعتقد أن الحياة الدنيا حياة دائمة لا تنقطع ، أو اعتقد أنها تفنى فناءً دائمًا لا بعث بعده ، ولا حساب ولا جزاء ، أو لم يؤمن بأن أصول شرع الله -تعالى- فيما حرَّم وفيما أوجب ، هى دينه الذى يجب أن يتبع ، فحرم من تلقاء نفسه ما رأى تحريمه ، وأوجب من تلقاء نفسه ما رأى وجوبه . . . من لم يؤمن بجانب من هذه الجوانب أو حلقة من هذه الحلقات لا يكون مسلمًا ، ولا تجرى عليه أحكام المسلمين فيما بينهم وبين الله -تعالى- ، وفيما بينهم بعضهم وبعض ، وليس معنى هذا أن من لم يؤمن بشيءٍ من ذلك يكون كافرًا عند الله -تعالى-

يخلد فى النار، وإنما معناه أنه لا تجرى عليه فى الدنيا أحكام الإسلام، فلا يطالب بما فرضه الله -تعالى- على المسلمين من العبادات، ولا يمنع مما حرمه الإسلام كشرب الخمر وأكل الخنزير والاتجار بهما، ولا يغسّله المسلمون إذا مات ولا يصلون عليه، ولا يرثه قريبه المسلم فى ماله، كما لا يرث هو قريبه المسلم إذا مات.

أما الحكم بكفره عند الله -تعالى- فهو يتوقف على أن يكون إنكاره لتلك العقائد أو لشىء منها ـ بعد أن بلغته على وجهها الصحيح، واقتنع بها فيما بينه وبين نفسه، ولكنه أبى أن يعتنقها ويشهد بها عنادًا واستكبارًا، أو طمعًا فى مال زائل أو جاه زائف، أو خوفًا من لوم فاسد، فإذا لم تبلغه تلك العقائد، أو بلغته بصورة منفرة أو صورة صحيحة ولم يكن من أهل النظر، أو كان من أهل النظر ولكن لم يوفق إليها، وظل ينظر ويفكر طلبًا للحق، حتى أدركه الموت أثناء نظره ـ فإنه لا يكون كافرًا يستحق الخلود فى النار عند الله -تعالى- .

ومن هنا كانت الشعوب النائية التى لم تصل إليها عقيدة الإسلام أو وصلت إليها بصورة سيئة منفرة، أو لم يفقهوا حجته

مع اجتهادهم فى بحثها ـ بمنجاة من العقاب الأخروى للكافرين، ولا يطلق عليهم اسم الكفر.

والشرك الذى جاء فى القرآن أن الله -تعالى- لا يغفره هو الشرك الناشئ عن العناد والاستكبار، الذى قال الله -تعالى- فى أصحابه:

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ ﴾ (النمل: ١٤)

الطريق إلى الإسلام:

٤- والإسلام حينما يطلب من الناس أن يؤمنوا بتلك العقائد، لا يحملهم عليها إكراهًا؛ لأن طبيعة الإيمان تأبى الإكراه، ولا يتحقق إيمان بإكراه، وقد جاء فى القرآن:

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ ﴾ (البقرة: ٢٥٦)

وجاء فيه خطابًا لنبيه محمد ﷺ:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٩٩)

وكذلك لا يحملهم عليها عن طريق الخوارق الحسية، التى يدهش بها عقولهم، ويلقى بهم فى حظيرة الاعتقاد دون نظر واختيار:

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾

(الشعراء : ٤)

والمعنى أنا لا نشاء ذلك ؛ لأنا نريد منهم إيمانًا عن تقبل واختيار.

لا يحملهم عليها بالإكراه، ولا يحملهم عليها بالخوارق، وإنما يحملهم عليها بالبرهان الذى يملأ القلب. وعلى هذا المبدأ عرض القرآن عقائد الإسلام عن طريق الحجة والبرهان.

٥- وكانت حجته التى لفت الأنظار إليها فيما يتعلق بعقيدة الإله «وجودًا ووحدانيةً وكمالًا» دائرة بين النظر العقلى، وبين ما يجد الإنسان فى نفسه من الشعور الباطنى، والإحساس الداخلى.

النظر العقلى:

وفى سبيل الحجة العقلية طلب إليه النظر والتفكير فى هذا الكون.. فى أرضه وسمائه، وما أودع فيه من أسرار، وبُنى عليه من نظام وإحكام، وأفرغ عليه من وحدة جعلته متماسك الحلقات.. الأمر الذى يحيل فى نظر العقل صدور الكون عن نفسه، أو عن قوى متضادة متعارضة، ويوجب فى الوقت نفسه الاعتراف القلبى بأنه لا بد لهذا الكون البديع المتسق المترابط السائر بحكم نظام واحد لا يلحقه خلل ولا انتكاس ـ من مصدر خالق مدبر له، مهيمن عليه، متصرف فيه عن طريق العلم

الشامل والقدرة النافذة والحكمة البالغة، وأن هذا الكون سائر بتدبير هذا الخالق إلى الغاية التى حددها له بعلمه وحكمته. وعندئذٍ يفعل به ما يشاء مما أرشدت إليه كتبه، ودل عليه وحيه لأنبيائه ورسله، من ظواهر انحلاله وفنائه التى كثر الإخبار بها فى القرآن. وتجىء بعدها الدار الآخرة:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ (الانشقاق: ١- ٤)

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾

(الانفطار: ١- ٥)

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾

(التكوير: ١- ١٤)

وهذا الطريق هو أكثر ما أرشد القرآن إليه ولا نكاد نرى سورة

من سوره إلا وفيها كثير من الإرشاد إلى هذا الطريق، والدعوة إلى التفكير فيه، والحث عليه:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

(البقرة: ١٦٤)

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد: ٤)

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

(الذاريات: ٤٧- ٤٩)

الوجدان الفطرى :

وفى سبيل الشعور الباطنى والوجدان النفسى يرشدنا القرآن ويسترعى أنظارنا إلى حقيقة نفسية واقعية تعبر عن قبس الإيمان بوجود الخالق ووحدانيته، وعن فطرية الشعور الدينى فى نفس

الإنسان، وتتمثل فى ذلك الإحساس الداخلى الذى يحسه الإنسان من نفسه حينما يتحرر من سلطان الوهم والهوى، ويتفلت من حكم المادة المظلمة، أو عندما يفاجأ بالسؤال عن مصدر هذا الكون، أو عندما تنزل به شدة تحيط به، ولا يرى فيما يقع حسه طريقًا للخلاص منها.

وفى سبيل ذلك يقول القرآن:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الزخرف: ٩)

ويقول:

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ (فصلت: ٥١)

ويقول:

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ (لقمان: ٣٢)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ

أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (يونس : ٢٢)

وقد صور لنا القرآن إحساس فرعون حينما أدركه الغرق، وأيقن أن لا نجاة له منه، فأعلن إيمانه حيث لا ينفع الإيمان:

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾

(يونس : ٩٠ - ٩٢)

طريق الإيمان بالملائكة والكتاب والنبيين واليوم الآخر :

٦- على هذا النحو لفت القرآن أنظار الناس فيما يتعلق بعقيدة الألوهية، أما فيما يتعلق بالرسالات عامة، ورسالة محمد ﷺ خاصة، وما يعرف عن طريقها من الملائكة والكتاب والنبيين واليوم الآخر، فقد كانت حجته التى لفت الأنظار إليها، المعجزة العقلية الدائمة، التى تعمل عملها فى العقول عن طريق النظر، مهما امتدت بها الحقب، وهى القرآن الكريم.

وقد قامت الأدلة ـ كما أسلفنا ـ على أن القرآن من عند الله -تعالى- ، وليس من صنع البشر وكان من ضرورة ذلك عند

العقـل ، الإيمان بأن ما تضمنه من الإخبار بالرسـالات والكتب ، والنبيين واليوم الآخر حق لا مرية فيه :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(العنكبوت : ٤٨ - ٥١)

الإلهيـــات :

٧- وكما أرشـد القرآن إلى هذا الجانب أرشد فى جانب الإله إلى ما وضعه هو سبحانه من أسـماء وصفات تمثل ذاته وقدرته وحكمتـه وكل ما لـه من كمال يليق بـه . وكان منها الواحد الأحـد الصمـد القـدوس الحى القيـوم الغنـى الأول الآخر ، ومنهـا : الخالق البارئ المصـور البديع القـادر القاهر الولى الحافـظ ، ومنها : رب رحمان رحيم رءوف ودود لطيف حليم رزاق وهَّاب .

وقد دلت أسـماؤه التى عبر بها عن نفسه فى كتابه على سمو

ذاتــه وتعاليــه عن خلقه، وعلــى كمال جماله الماثــل فى رحمته وفضله. والواقع أن هذه الأسماء تطابق النظر العقلى السليم الذى به يدرك الإنسان ربه، ويرى أن تحقق معانيها لله، واختصاصه بها ممــا تقضى بــه دلالة الكون وأحداثه، ويرى فى الوقت نفســه أن ليــس فى الكون والحياة ما يســمح به وضعــه، وحاجته ونقصه، وتغيــره وانفعالــه أن يناجى أو يوصف بشــىء من هذه الأســماء، وتلــك الصفــات. والاســم الجامــع لكمــال الألوهية هو الاســم المعروف عند المسلمين بلفظ الجلالة وهو كلمة «الله».

وبهــذه الأســماء يناجــى المســلم ربــه، ويدعــوه ويذكــره، ويســتحضر عظمتــه، ويتعــرف آثاره، ويســمو عــن طريقها إلى أسمى درجات القرب إلى الله -تعالى- :

﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾ (الإسراء: ١١٠)

أسماء الله -تعالى- لا دخل للإنسان فيها:

وليــس للمســلم أن يناجــى ربــه باســم أو صفة لــم يضعه الله -تعالى- لنفسه فهو أعلم بما يدل على ذاته وآثاره وصفاته، ولا يتلقى ذلك إلا عنه ســبحانه عن طريــق قرآنه، أو عن طريق إخبار الرسول ﷺ القطعى:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ

أَسْمَـٰٓئِهِۦۚ ﴾ (الأعراف: ١٨٠)

ذات الله -تعالى- توصف ولا تُدرَك:

٨- والقرآن حينما أراد أن يرشد الإنسان إلى الله -تعالى- (الخالق)، كان هدفه الهداية إلى معرفته بآثاره الدالة على صفاته وكمال جلاله وجماله، وتنزهه عن المماثلة لخلقه، أو الاتحاد أو الحلول في شيء مما خلق، وأوصد أمامه باب التطلع إلى معرفة حقيقته وذاته تعالى، وصرفه عن محاولة التفكير في هذا الجانب:

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

(الأنعام: ١٠٢، ١٠٣)

وقص علينا القرآن أن موسى عليه السلام طلب من ربه أن يريه نفسه لينظر إليه، فقال له:

﴿ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١٤٣، ١٤٤)

ومـن هنـا كان العجز عن إدراك حقيقة الـذات الأقدس عقيدة مـن عقائد الإيمان بالله -تعالى- ، وكان فى الوقت نفســه برهانًا على ســمو الألوهية الحقة عن الدخـول فى دائرة التفكير العقلى المحـدود بطبيعته ، الـذى لا يجد مجالًا لتخطى مـا وراء الكون الذى يتناوله ، وتجرى فيه مقارناته واسـتنباطاته ، وكان الإرشـاد إلـى معرفته وإلى الإيمان بوجوده من جانـب النظر فى آثاره ومن جانب الإحساس الإنسانى الداخلى كما أسلفنا .

وحدانية الإله:

٩- الإســلام يقرر فى جانب الإله (الوحدانية) الشاملة لوحدانية الربوبيــة ، فلا خالق ولا مدبر ولا متصرف ســواه ، ووحدانية الألوهية ؛ فلا معبود ولا مسئول ولا مستعان سواه . وكثيرًا ما يستدل بوحدانية الربوبية التى تشهد بها الفطر ويعترف بها الإنسان فى كثير من حالاته على وحدانية الألوهية :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ (البقرة : ٢١- ٢٢)

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ

﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ (النحل: ٢٠- ٢٢)

إنكار الإسلام لتعدد الآلهة:

وقد نعى القرآن كثيرًا على من عدَّد الإله فاتخذ إلهين اثنين أو اتخذ التثليث أو عبد شيئًا من الخلق كالشمس والقمر والأصنام.. وحرَّك عقول المعددين للإله إلى النظر فيما يوجب وحدة المعبود وحدة تامة كاملة:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾

(الإسراء: ٤٢)

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٢)

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

(المؤمنون: ٩١، ٩٢)

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا

نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ ﴾ (آل عمران : ٦٤)

﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (الأنعام : ٧٩)

عوالم الغيب: الملائكة:

١١ - والعقيدة الثانية ـ بعد الإيمان بالله -تعالى- تعالى ـ هى العقيدة فى الملائكة.

وقد قرر القرآن فيهم أنهم عالم غيبى، ليس ماديًّا من طبيعته أن يبرز فى العالم المادى:

﴿ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴾ (الإسراء : ٩٥)

وأنهم :

﴿عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴾ (الأنبياء : ٢٦، ٢٧)

﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾

(التحريم : ٦)

وأنهم ذوو وظائف تتعلق بالأنفس والأرواح، وزعها الله -تعالى- عليهم ينفذون بها إرادته فى خلقه، فمنهم من يبلغ الوحى والتكاليف والرسالات إلى أنبيائه ورسله:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ (الشعراء: ١٩٢- ١٩٤)

ومنهم من يؤيد به الأنبياء ويثبت المؤمنين:

﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾
(البقرة: ٨٧)

﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾
(الأنفال: ١٢)

ومنهم المبشِّرون بحسن العاقبة للذين أحسنوا فى الدنيا، واتبعوا ما أنزل الله -تعالى- :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٣٠)

ومنهم من يقبض الأرواح عند الموت:

﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ (السجدة: ١١)

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (النحل : ٣٢)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ (النساء : ٩٧)

ومنهم من يحفظ على الإنسان أعماله في دنياه حتى تعرض عليه في أخراه:

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (الانفطار: ١٠- ١٢)

إلى غير ذلك من الوظائف التي خصهم الله -تعالى- بها، والتي لم يكن شيء منها متعلقًا بالمادة وشئون الإنسان في الدنيا.

وبهذه الوظائف قرر القرآن أنهم رسل أولو أجنحة وقوة:

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ ﴾ (الحج : ٧٥)

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فاطر : ١)

والمسلمون الذين يؤمنون بأن مصدر العقيدة في الشئون

الغيبية هو القرآن وحده ـ وهو الحق الـذى نؤمن به ـ يقفون فى الإِيمـان بالملائكة عند الحد الذى أخبر به القرآن عنهم إخبارًا لا يحتمـل التأويل، ولا يحمِّلون أنفسـهم شـطط الاعتقاد بما وراء الخبـر اليقينى، لا من جهـة مادتهم (كيفيـة خلقتهم)، ولا من جهـة تشـخصهم أو رؤيتهم، وهم ــ فى معتقدهم ــ عالم غيبى لا يعرفه الإِنسـان بإِدراكه البشرى، وإنما يعرفه عن طريق الخبر الصـادق عن الله سـبحانه، وهو ما جاء فى القـرآن: أنهم جند من جنـود الله -تعالـى- ، حجـب حقيقتهم عـن الإِدراك البشـرى، خاضعـون لسـلطان الألوهية العـام، الذى لم يشـذ عن الخضوع له شـىء فـى الطبيعة أو فيما وراءها، وهم وسـائل الصلة بين الله -تعالى- وخلقه.

الإيمان بعالم غيبى آخر (الجن):

١٢- وكمـا جـاء القرآن بنوع من العالم الغيبـى هو (الملائكة) جاء بنوع آخر أطلق عليه اسـم (الجـن)، غير أن حديثه عن الجـن لم يكن علـى نحو حديثه عـن الملائكـة، فهو بينما لـم يعرض فيـه ـ ولو مـرة واحدة ــ للمادة التـى خلق منها الملائكة، عرض للمادة التى خلق منها الجن:

﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ (الحجر: ٢٧)

﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ (الرحمن : ١٥)

وهو بينما يقرر فى الملائكة أنهم عباد مكرمون، لا يعصون الله -تعالى- ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، يقرر فى الجن أن منهم الصالحين، ومنهم الظالمين:

﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ (الجن: ١٤، ١٥)

وبينما يقرر أن الملائكة تتنزل بالوحى على الأنبياء والرسل، يقرر أن الجن يتلقى وحى الله -تعالى- عن الأنبياء والرسل:

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾
(الأحقاف: ٢٩- ٣١)

يتلقون الوحى عن الأنبياء ويعقلونه ويؤمنون به، ويدعون قومهم إليه، ويبشرونهم على الطاعة، وينذرونهم على المعصية. وبينما لم يشرك القرآن الملائكة مع الإنسان فى مسئولية التكليف بشرعه، والانحراف عن تعاليمه، نراه قد أشرك الجن معه فى ذلك، وأن الله -تعالى- سينادى الفريقين: الإنس والجن

بخطاب واحد، ومسئولية واحدة يوم الجزاء :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ ﴾

(الأنعام : ١٢٨)

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ ﴾ (الأنعام : ١٣٠)

ونجد سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، تضع الجن مع الإنس فى إطار واحد وتقيم الحجة عليهما معا، فى عبارة واحدة، وبعنوان واحد: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن : ١٤ - ١٦)

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

(الرحمن : ٣١-٣٤)

ومن الفروق التى نراها فى القرآن بين الجن والملائكة، أنه

يضيف إلى الملائكة كل ما هو للإنسان فى حياته الروحية، بينما نراه يضيف إلى الجن بالنسبة إلى الإنسان ما قد يكون مثله من الإنسان للإنسان من الوسوسة بالشر وتزيينه، وجاء ذلك فى كثير من آيات القرآن، ونزلت بشأنه خاصة سورة قصيرة من سوره، أمرت بالتعوذ من شرها :

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ (الناس : ١- ٦)

وهذا البيان القرآنى فيما يختص بما وراء الطبيعة الذى لم يمنح الإنسان قوة إدراك حقيقته، ومن هنا لم يكن من سبيل إلى الإيمان بالملائكة والجن إلا عن طريق الوحى المقطوع بصدقه، ونسبته إلى الله -تعالى- ورسوله ﷺ.

ومما ينبغى التنبه له : أن القرآن مع كثرة ما تحدث به عن الجن، لم يجعل الإيمان عقيدة من عقائد الإسلام كما جعل الملائكة، وإنما تحدث عنهم فقط كما يتحدث عن الإنسان، وعن كل شىء. وإذن : فالتصديق بوجودهم من مقتضيات التصديق بالقرآن، وصدقه فى كل ما حدث عنهم...

وقد طلب الإيمان بالملائكة لا باعتبار أنهم كائنات موجودة فقط، وإنما طلب باعتبار وظائفها التى تتصل اتصالا وثيقا بمهمة

الديـن، وهــى التهذيب النفســى والتوجيــه إلى الخيــر، وتقوية دواعيه فى الإنسـان. وهذه الوظيفة ليســت من شــأن الجن الذى يسـتوى مع الإنسان فى الوقوف بين قوى الخير والشر، والأديان إنما تطلب الإيمان بما يقوى بواعث الخير، لا بما يقوى بواعث الشر، ولا بما يستوى معه بواعث الخير والشر.

الــروح:

أمـا الـروح التى بها حياة الإنسـان، فلم يرد عنهـا فى القرآن سوى قوله تعالى:

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾

(الحجر: ٢٩)

وقولـه:

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾

(الواقعة: ٨٣، ٨٤)

وغايــة ما يـدل عليه ذلك أنها شـىء يبعثـه الله -تعالى- فى جسم الإنسان فتكون به حياته، وإذا انتهى أجله خرج من جسمه فكان موته.

أمـا حقيقـة ذلك الشــىء فقد تـرك القرآن بيانهـا، ومع ذلك فليــس فى القرآن ما يمنع العلماء من البحث فى حقيقتها؛ شــأن

كل مجهول يحاول الإنسان أن يدركه سواء وصل إليه أم لم يصل .

وقد يفهم من قوله تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء : ٨٥)

أن الـروح مما اسـتأثر الله -تعالى- بعلمه ، وأنها ليسـت من عالم المادة التى يستطيع العقل البشرى أن يدرك حقيقتها ببحثه ونظره ولكن المتأمل فى سـابق الآيـة المذكورة ولا حقها يرجح أن المراد بالروح فيها هو القرآن وقد سماه الله -تعالى- روحا :

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ ﴾ (الشورى : ٥٢)

والذى تدل عليه النصوص الواردة فى القرآن وأقوال الرسـول ﷺ ـــ فيمـا يتعلق بالروح بعـد الموت ـ أنها تبقـى بعد الموت منعمة أو معذبة :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠)

الرسل والإيمان بهم:

١٣- وكمـا طلب الإسـلام الإيمـان بالملائكة طرفـا أعلى ، فى طريق وصول الهداية العليا للإنسـان ، طلب الإيمان بالرسل

طرفا متصلا بالإنسان، طبيعتهم من طبيعته، وبشريتهم من بشريته، وهم فى حقيقتهم بشر وأناس، يتفقون مع سائر الناس فى أخص أوصاف البشرية، وبه تيسر التلقى عنهم، وتقليدهم فيما يقولون ويفعلون ولكن خصهم الله -تعالى- بنوع من الاصطفاء صاروا به أهلا لتلقى وحى الله -تعالى- عن ملائكته والاحتفاظ به كما تلقوه، والقيام بتبليغه للناس، وقيادتهم إياهم فى التطبيق والعمل به فى الحياة، وكانوا بذلك مبلغين عن الله -تعالى- معصومين عن الخطأ فيما يبلغون وكانوا أسوة لأقوامهم فيه، وإلى هذا تشير الآيات :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(النحل : ٤٣، ٤٤)

﴿ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴾

(الأنبياء : ٨)

وحدة الرسالات الإلهية :

١٤- وإذا كان رقى الإنسان الروحى الذى به انتظام شئونه فى الدنيا ووقوعها على وجه الحكمة والصواب، هو هدف

الحكمة الإلهية من الرســالات إليه، وكان الإنســان من مبدأ الخليقــة، هــو المخلوق الــذى وضع فى مــكان الصدارة من الخلــق، والذى ركبت فيه قوتا الخير والشــر، كانت رســالة توجيهه إلى الخير وتقوية جانبه سنة إلهية فى جميع أطواره، تعبد له طريق الارتقاء إلى الله -تعالى- :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر: ٢٤)

وبذلك تعاقبت الرســالات على الإنسان أمة بعد أمة، وجيلا بعــد جيل، وكلها ذات هدف واحد: هو توجيه الإنســان إلى طريــق الكمال، وكانــت أصول رســالاتهم وعقائدها الأولى واحدة، لا تختلف فى رسالة عنها فى رسالة أخرى:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ ﴾ (الشورى: ١٣)

وقد كان الرســل بذلك ـ كما صورهم الرسول محمد ﷺ فى حديث له ـ لبنات بيت واحد، يؤسس سابقهم للاحقهم، ويشيد لاحقهم على أساس سابقهم، وأخذ الله -تعالى- عليهم فى ذلك العهد والميثاق:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَٰقَ النَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ

ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (آل عمران: ٨١)

الإسلام لا يفرق بين الرسل:

١٥- ومن هنا طلب القرآن الإيمان بجميع الرسل، كما طلب الإيمان بما أنزل عليهم جميعا، وكان الإيمان بالبعض دون البعض ـ في الإسلام ـ خروجا عن دين الله -تعالى- وهديه:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ (البقرة: ٤)

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

(البقرة: ١٣٦)

وجاء فيمن يؤمنون بالبعض دون البعض:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (النساء: ١٥٠، ١٥١)

وفى الذين يؤمنون بالجميع :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾

(النساء : ١٥٢)

محمد ﷺ خاتم الأنبياء:

١٦- وكما طلب الإسلام الإيمان بجميع الرسل، طلب الإيمان بأن محمدا ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن رسالته تضمنت الإرشاد إلى ما به كمال الإنسانية، وفتحت لها جميع النوافذ التى تستطيع أن تصل منها إلى كل ما ينفعها ويرقيها روحا ومادة:

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ ﴾ (الأحزاب : ٤٠)

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ (المائدة : ٣)

رسالة محمد ﷺ للناس جميعا :

١٧- وكما قرر القرآن أن الرسالات الإلهية ختمت برسالة محمد ﷺ وأنه خاتم الأنبياء ـ قرر أيضا أن رسالته عامة بمعنى :

أنها موجهة إلى جميع الناس فى جميع أجناسهم ولغاتهم : الموجودين منهم وقت حياته، والموجودين منهم بعد مماته إلى يوم الدين :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

(الأعراف : ١٥٨)

﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ (الأنعام : ١٩)

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٧)

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾

(سبأ : ٢٨)

وقد حكى القرآن رسالات غيره ممن تقدم بعنوان القومية خاصة :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ (الأعراف : ٥٩)

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ (الأعراف : ٦٥)

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ (الأعراف : ٧٣)

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾ (الأعراف : ٨٠)

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ (الأعراف : ٨٥)

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ﴾

(الأعراف : ١٠٣)

وقال فى شأن عيسى :

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (آل عمران : ٤٩)

وظيفة الرسل :

١٨- ويهمنا هنا أن نعرض لما عرض له القرآن من وظيفة الرسل وأنها لا تعدو الإرشاد والتعليم عن طريق الوحى ؛ لهم أسمى مكانة الاحترام والقيادة الروحية التهذيبية ، وهم بعد ذلك لا يملكون نفعا ولا ضرا لأنفسهم ، فضلا عن غيرهم :

﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف :١٨٨)

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾

(الغاشية : ٢١ ، ٢٢)

﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ (الأنعام : ٦٦)

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ (الإسراء : ٥٤)

بشرية الرسل :

ومن هنا أكد القرآن فى غير آية عن بشريتهم ، وأنهم برسالتهم لم يخرجوا عن طبيعتهم البشـرية ، وإن كانت قد لحقتهم عصمة الله –تعالـى– فيما يبلغون عنه ، وهى درجة اصطفاء ، لا يرتفعون بها عن منزلة البشرية :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾

(الكهف : ١١٠)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾

(الرعد : ٣٨)

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ **(النحل : ٤٣)**

أمـا فى غير ما يبلغونه عـن الله –تعالى– من الآراء والأحكام، أو الأفعال الشخصية ، فهم ـ كغيرهم ـ يصيبون فيها ويخطئون .

وقد عاتب الله –تعالى– نبيه محمدًا ﷺ على بعض تصرفات فعلها من تلقاء نفسه :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾[١٣]

(عبس : ١ – ١٠)

(١٣) ونزلت فى شأن إعراض النبى ﷺ عن أعمى فقير بإقباله على صناديد قريش .

الأولياء فى القرآن:

١٩ – وإذا كان هذا شأن الأنبياء، فهو شأن المقربين من بعدهم ـ وهم المؤمنون المتقون ـ وليس فى الإسلام ملك ولا بشر به معنى يستحق به أن يعبد مع الله –تعالى– ، أو يتجه إليه معه سبحانه، أو يطلب منه غفران الخطيئة، دونه تعالى:

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ **(الإسراء: ٥٦)**

والإسلام لا يعرف فى عقائده مدلولا لكلمة القديسين على نحو ما تعرفه بعض الطوائف الدينية.

أما الأولياء الذين يعرفهم الإسلام، فقد بينهم القرآن بعبارة واضحة، ليس فيها ما يدل على أن لهم امتيازا خاصا يلحق بهم نوعا من القداسة التى تناط بها مغفرة الذنوب، والقدرة على ما لا يقدر عليه الإنسان بطبيعته البشرية:

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ **(يونس: ٦٢، ٦٣)**

فالأولياء هم جميع الذين يتبعون الرسل فيما يبلغونه عن الله –تعالى– ، ويتقربون إليه تعالى بما شرع، ويبتعدون عما حرمه ويغضبه.

خطأ الناس فى معنى الأولياء:

ومن الأخطاء التى تسربت إلى المسلمين كما شاعت بين غيرهم من الدينيين أن لله صنفا من عباده غير الرسل، منحهم حق التصرف فى الكون واستجابة الدعاء، وميزهم عن سائر خلقه بحق الاتجاه إليهم، والاستغاثة بهم، وتمييز أضرحتهم عن أضرحة سائر الناس، برفع القباب عليها، وإيقادها بالسرج، والتمسح بمقاصيرهم، ووضع العمائم والستور عليها، ثم بنذر النذور لهم، وتقديم القرابين إليهم.

شاع ذلك عند عامة المسلمين، كما شاع عند عامة غيرهم، ودين الله فى جميع رسالاته ينكره كل الإنكار، ويأباه كل الإباء، ولا يرى الأولياء سوى المؤمنين المتقين.

والقرآن يوجه الخطاب للنبى محمد ﷺ:

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٨)

الإيمان بالكتب:

٢٠- كان من ضرورة الإيمان بالملائكة والرسل ـــ باعتبارهم طرفى طريق الرسالة الإلهية إلى الخلق ـ الإيمان بنفس الرسالة التى يبعث بها الملائكة إلى الرسل؛ ليبلغوها

للناس، والرسالات هى الكتب السماوية التى تضمنت رسم الله -تعالى- للعقائد والعبادات، وأصول الحلال والحرام.

ومن هنا طلب الإسلام الإيمان بالكتب، سواء فيها ما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل على إخوانه السابقين، فالإيمان بإبراهيم وصحفه، وبموسى وتوراته، وبعيسى وإنجيله، وبمحمد ﷺ وقرآنه، وكل ما أنزل الله -تعالى- من كتب على من اصطفى من رسل ـ عنصر من عناصر الإسلام، لا يتحقق إلا به.

وإذا كان محمد ﷺ آخر الأنبياء والرسل فالقرآن كذلك آخر الكتب والرسالات. والقرآن ـ كما يعرفه من درسه ونظر فيه ـ إنما عرض لأصول العقائد وفضائل الأخلاق، واكتفى فى المعاملات بالإرشاد إلى ما يحفظ التوازن بين العباد، ويحقق لكل إنسان حريته العملية فى الحياة على أساس من العدل وحفظ الضروريات التى لا قوام للحياة إلا بصيانتها، والبناء عليها.

وليس من مهمة القرآن شرح حقائق الكائنات، ولا بيان أسرارها ولا جهات نفعها، ولكنه حث الإنسان على النظر فى الكون، وفتح للعقل البشرى باب البحث فيما يحيط به من مخلوقات، وما أودع فيها من أسرار وسنن لتتسع معارفه، ويعظم استخدامه لما يمكنه من الحياة الطيبة، والعيش الرغيد.

ولم يقيد الإنسان بشىء فى معلوماته أو أعماله إلا ما كان

متصلا بخالقه وسائر عقائده وعباداته، ولم يكن الدين مانعا من خوض العقل فى بحث الكائنات، والاستزادة من معرفة أسرارها تقوية للإيمان بالخالق وترقية للحياة الإنسانية التى يكمل بها وجودها، وتعظم سعادتها.

الإيمان باليوم الآخر:

٢١- والعنصر الخامس من عناصر الإيمان فى الإسلام: هو الإيمان بيوم الحساب، وقد عبر القرآن عنه باليوم الآخر، وأرشد إلى أنه خاتمة المطاف بالإنسان، وأن إليه تنتهى الغاية من خلق الإنسان:

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾

(النجم: ٣٩ - ٤٢)

قرره القرآن، وجعل حياة الإنسان فيه من جهة اللذة والألم، والنعيم والجحيم مرتبطة بما اختاره لنفسه فى الحياة الدنيا، فهى دار جزاء على ما قدم من عمل:

﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ ﴾

(الإسراء: ٧٢)

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ

﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ (الزلزلة: ٧، ٨)

وقد عبر عن نعيمه وجحيمه بالجنة والنار.

ومن هنا كان الإيمان باليوم الآخر أقوى ما يدفع الإنسان إلى الكمال والرقى فى حياته الدنيا، ليحوز المكانة السامية عند الله -تعالى- فى الدار الآخرة.

نعيم الآخرة وعذابها:

٢٢- وقد تحدث القرآن كثيرا عن نعيم الإنسان وعذابه فى هذه الدار، وذكر كثيرا من أنواع النعيم وأصناف العذاب بعبارات ألف الإنسان فى حياته الدنيا التعبير بها عما يعرفه من نعيم وشقاء أو لذة وألم؛ ومصادر الإسلام تؤكد أن الحياة هناك نشأة أخرى ليس لها من حياة الدنيا إلا الأسماء.

والذى نؤمن به أنها دار النعيم أو العذاب، وأنها ليست كالدنيا بخواصها ومزاياها وأنها المرحلة الأخيرة من مراحل الحياة الإنسانية.

وفى نعيمها يقول:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ (الرعد: ٣٥)

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾

﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: ٤٦ - ٥٥)

وفى عذابها:

﴿فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ﴾

(الواقعة: ٤٢ - ٤٤)

﴿كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ (الهمزة: ٤ - ٧)

وهكذا نجد القرآن يذكر نعيم الآخرة وعذابها بما يحمل الإنسان على الإيمان والعمل.

دوام الجنة:

٢٣- والمسلم لا يشك ولا يتردد فى الإيمان بدوام نعيم الجنة دواما لا انقطاع له كما لا يشك ولا يتردد، فى أن المكذبين للدين عنادا واستكبارا سينالهم حتما جزاء تكذيبهم الذى خرجوا به عن فطرة الإيمان، ولكن هل يدوم العذاب وتدوم النار كما يدوم، وتدوم الجنة؟

(١٤) راجع ما كتبه العلامة ابن القيم فى فصل «أبدية النار ودوامها»، من ص ٢٥٤- ٢٨٠ من كتاب «حادى الأرواح».

وهنا بحث عميق واسع النطاق تناوله المتقدمون من عهد السلف، وأُثِرَ فيه عن كثير من الأصحاب أقوال وآراء.

دوام النار:

٢٤- ليس فى القرآن نص قطعى صريح فى دوام النار، وإنما فيه التصريح بخلود الكفار فيها، وهو يتحقق بأنهم لا يخرجون منها ما دامت موجودة، أما أنها تنقطع أو تدوم فهذا شيء آخر ليس فى القرآن ما يقطع به.[1]

وعلى العموم، فالعقل الإنسانى بالنسبة إلى الإيمان باليوم الآخر أسير النقل الصحيح اليقينى عن كتاب الله -تعالى- ، أو أقوال الرسول ﷺ ، ولا سبيل له فى أن يدرك كنه ما يكون فى تلك النشأة[١٤].

العقائد الأساسية للإسلام هى عقائد كل دين سماوى:

٢٥- هذه هى العقائد الأساسية للإسلام، وهو يقرر أنها أساس كل دين إلهى، وإذاً فالأديان التى لا تبنى عليها -فى حكمه- أديان باطلة، لا يقام لها وزن، فالإسلام ينكر على الملحدين الذين لم يؤمنوا بالإله الخالق إلحادهم، وعلى المشركين الذين يعبدون مع الله -تعالى- غيره شركهم، وينكر على الذين

(١) يفهم من كلام المؤلف عدم القطع بدوام النار لعدم وجود نص قطعي يدل على ذلك, ولكن الراجح من أقوال العلماء في هذه المسألة هو دوام النار وبقاءها.

لا يؤمنون بالملائكة والكتب واليوم الآخر عدم إيمانهم، ويدعوهم جميعا إلى الإيمان بتلك العقائد عن طريق النظر والحجة.

موقف الإسلام بالنسبة لغير المسلمين:

٢٦- والإسلام لا يرى أن مجرد المخالفة فى الدين، تبيح العداوة والبغضاء، وتمنع المسالمة والتعاون على شئون الحياة العامة فضلا عن أن تبيح القتال لأجل تلك المخالفة، والقرآن يقول:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ (الكافرون: ١-٦)

ويقول:

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ (الشورى: ١٥)

ويقول:

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (الممتحنة: ٨، ٩)

وقد وصى الله -تعالى- الإنسان بوالديه حسنا، وأن يعاشرهما بالمعروف، ولو كانا مشْركَينِ، وجاهداه على أن يشرك بالله -تعالى- مثلهما:

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ (لقمان: ١٥)

وقد استمر أبو طالب عم النبى ﷺ على شركه إلى أن مات، ومع ذلك كان طوال حياته سفيرًا صالحًا بينه وبين خصومه، وكان قوة تحميه من أذاهم.

الإسلام يبيح المعاهدات والتعاون مع مخالفيه ما لم يكونوا محاربين:

٢٧ - والإسلام فى ظل هذا المبدأ يبيح للمسلم أن يعقد مع مخالفيه فى الدين ماشاء من أنواع المعاهدات التى لا تمس أصلا من أصول الدين، ولا تضر بمصلحة دعوته أو أمته، وفى مثل هذا تقرأ قوله تعالى:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة: ٤)

حرية التدين فى الإسلام:

٢٨ - وكذلك يبيح أن يرتبط بأهل الكتاب (اليهود والنصارى) عن طريق المصاهرة، فيتزوج منهم ويكونون أخوالا لأبنائه، ويكون لزوجته الكتابية من الحقوق والواجبات نفس الحقوق والواجبات المقررة للزوجة المسلمة، ويكون لها كذلك الحق الكامل، والحرية التامة فى البقاء على عقيدتها، والقيام بفروض عبادتها، والذهاب إلى كنيستها لأداء طقوسها، مادامت مقتنعة من تلقاء نفسها بها.

٢٩ - نعم لم يبح الإسلام للمسلم أن يرتبط مثل هذا الارتباط بالمشركين الذين يعبدون غير الله -تعالى- ، أو ينكرون وجوده.

وفى إباحة التزوج من أهل الكتاب يقول الله -تعالى- :

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ (المائدة: ٥)

وفى منع التزوج من المشــركين أو تزويجهم من المســلمين يقول :

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٌ مِّن مُّشۡرِكَةٍ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٌ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٌ مِّن مُّشۡرِكٍ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ ﴾ (البقرة : ٢٢١)

وهذا هو مسلك الإسلام بالنسبة للأديان الأخرى.

الإنسان فى الكون وتسخيره له:

٣٠ - كلف الله -تعالى- الإنســان بهذه العقائد ، وجعل له مرتبة الســيادة فى الكــون والخلافة فــى الأرض ، يعمرها وينميها ، ويعمــل على إظهــار رحمته ونعمته على عبــاده ، وجاء النص القرآنــى الصحيح بــأن الله -تعالى- كرم الإنســان ، وفضله علــى كثير ممن خلق ، وخصه بعقل به كلفه ، وبه أرســل إليه الرســل ، وقد عــرض له فى القرآن صحائــف الكون فى أرضه وســمائه ، مائــه وهوائه ، جماده ونباتــه وحيوانه ، وحثه على النظــر والتفكيــر فيمــا خلق ، وتعرف أســراره فيــه ، فيتخذ منها ما يقوى إيمانه ، كما يتخذ منها وســائل رقيه فى الحياة المادية ، التى تكون برقيها عزته وســعادته ، وبذلك جمع له بين حظى الجسم والروح ، وجعل حياته الكاملة فى استيفائه متعة المعرفة واليقين ، ومتعة المادة والعمل :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا ﴾

(البقرة : ٢٩)

﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (لقمان : ٢٠)

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِىَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية : ١٢ ، ١٣)

الثروات الاقتصادية:

وقد أرشده إلى كثير من أصول الثروات الاقتصادية التى يحتاجها الإنسان فى رقيه المادى :

﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾

(النحل : ٥)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ (الأنعام : ١٤١)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل : ١٤)

﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ (فاطر : ٢٧)

هذه مكانة الإنسان فى الحياة، وعلاقته بالكون؛ سيد ينظر ويستخدم وينفع فى مادته وروحه.

استعداد الإنسان للخير والشر:

٣١ - والإسلام يقرر أن الله -تعالى- خلق الإنسان مستعد لأن يسعد نفسه بالخير، أو يشقيها بالشر، والخير هو ما ينفعه وينفع جماعته فى الدنيا ويرضى الله -تعالى- عنه فى الآخرة. والشر هو ما يؤذيه فى حياته ويغضب الله -تعالى- عليه فى آخرته:

﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ (البلد : ١٠)

﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (الإنسان : ٣)

والإنسان بذلك كان صالحا بعقله وعمله ومسلكه فى الحياة

لدرجات القرب من الله -تعالى- ، ولدرجات البعد عنه . وما كانت هداية الوحى إلا تقوية لجانب الخير فيه ، وللأخذ بيده من نزعات الطغيان والهوى إلى ما قدر له من كمال فى دنياه وأخراه ، والإسلام حينما يضع الإنسان فى تلك المنزلة لا ينظر إلى ما بين أفراده من فوارق شخصية من ذكورة وأنوثة ، وسواد وبياض ، فالذكر والأنثى ، والأسود والأبيض فى الوضع الإسلامى بالنسبة إلى الخالق ، وبالنسبة إلى الكون سواء ، فالكل عباد مطالبون بالعقيدة ، وما أنزل الله -تعالى- من شرع ، وأكرمهم عند الله -تعالى- أتقاهم ، وكلهم أناس : ينظرون ويفكرون ويعملون ؛ لا حجر لأحد فى أن ينظر ويعمل ، ولا حجر على أحد فى أن ينتفع ، وأسعدهم فى الدنيا العاملون المخلصون المؤمنون :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

(النحل : ٩٧)

حرية الإنسان واختياره:

٣٢ - هذا هو وضع الإنسان فى نظر الإسلام ، وهو وضع يدل دلالة واضحة على أن الإسلام يرى أن الإنسان ذو حرية واختيار فى حياته : فهو يفعل الخير مختارًا فيثاب ، ويفعل

الشر مختارًا فيعاقب، وبتلك الحرية، وهذا الاختيار كلفه الله -تعالى- وأرسل إليه الرسل لتهديه وترشده، ثم تركه وما يختار لنفسه من مسلك الخير أو الشر، لا يدفعه بقوة خارجة عن نفسه إلى خير أو شر، ولو شاء ذلك لخلقه بطبيعة الخير فلا يعرف شرًا، أو بطبيعة الشر فلا يعرف خيرًا، وعندئذ، لا يكون هو الإنسان الذى جعله خليفة فى الأرض، وكلفه بدينه وشرائعه، وأعد له الثواب والعقاب. ولكن خلقه مختارًا فى أفعاله، وبذلك يكون جزاؤه فى يوم الدين تبعًا لما يختاره لنفسه فى الحياة، يكون صورة من اللذة والألم، مساوية لما حملت نفسه من بواعث الخير، وبواعث الشر:

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

(الأعراف: ١٤٧)

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٧ - ١٠)

والقرآن ملىء بمثل هذه النصوص الدالة على أن الإنسان مختار فى فعله، ليس مقهورًا ولا مجبوراً على خير أو شر.

القضاء والقدر:

وما القضاء والقـدر اللذان ورد فى القرآن ذكرهما، وجعلهما الناس مرتبطين بفعل الإنسـان ومسلكه فى الحياة ـ سوى النظام العام الذى خلق الله -تعالى- عليه الكون ـ وربط فيه بين الأسباب والمسببات، والنتائج والمقدمات، سنة كونية دائمة لا تتخلف وكان من بين تلك السـنة، أن خلق الإنسان حرًا فى فعله، مختارًا غير مقهور ولا مجبور.

وقديمًا اعتذر المشركون عن شركهم بأنهم مجبورون بمشيئة الله -تعالى- لشركهم، فأنكر الله -تعالى- عليهم، وأعلمهم أن حجته عليهم قائمة، بما منحهم من عقل، وأرسل إليهم من رسل:

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ (الأنعام: ١٤٨، ١٤٩)

يريد أن الله -تعالى- تركهم، وما يختارون لأنفسهم من ضلال أو هداية.

نعم يعلم الله -تعالى- ـ بشمول علمه ـ ما سيكون الإنسان باختياره من هدى أو ضلال، وخير أو شر، وليس فى علم الله -تعالى- بذلك شىء من معانى القهر والإلزام، وإنما هو مجرد انكشاف ما وقع وسيقع على السنة الدائمة التى رسم، وهى سنة الاختيار، التى بنى عليها التكليف والثواب والعقاب.

وإذًا فلا يسمح الإسلام أن يضل الإنسان أو ينحرف عن أوامر الله -تعالى- فى عقائده ودينه، ثم يعتذر بالقضاء والقدر. ولو صح ذلك لبطلت التكاليف، وكان بعث الرسل وإنزال الكتب،

ودعوة الإنسان إلى دين الله -تعالى- وما يجب ، ووعده بالثواب لأهل الخير ، وبالعقاب لأهل الشر ـ باطلا وعبثا ـ لا يتفق وحكمة الخالق الحكيم فى تصرفه وتكليفه الرحيم بعباده.

هذا رأى الإسلام بالنسبة إلى اختيار الإنسان وجبره.

(١٥) انظر محصل الرازى ومقاصد السعد وغيرهما من كتب الكلام والأصول.

الباب الثانى
طريق ثبوت العقيدة

التكاليف علمية وعملية:

١ - للإنسان قوتان؛ إحداهما نظرية، وكمالها فى معرفة الحقائق على ما هى عليه؛ والأخرى عملية، وكمالها فى القيام بما ينبغى من الشئون فى الحياة. وقد قرر الإسلام هذا المبدأ أساسًا لسعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة فجاءت تكاليفه نوعين: منها ما يطلب علمًا، ومنها ما يطلب عملا، ونرى ذلك واضحًا جليًا فى هذه الكثرة من الآيات القرآنية التى تجمع بين الإيمان والعمل، وتربط بهما النجاة والسعادة:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ **(النحل: ٩٧)**

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ **(الكهف: ١٠٧)**

﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ **... إلخ** **(العصر: ١-٣)**

وقد اصطلح العلماء على تسمية التكاليف التى تطلب علمًا (بالعقائد)، أو (أصول الدين) كما اصطلحوا على تسمية التكاليف التى تطلب عملا (بالشريعة) أو (الفروع).

الشارع حدد العقائد:

ولما كانت الحقائق التى يمكن أن يعلمها الإنسان كثيرة، وكان أكثرها لا يتصل من قريب بالسعادة التى يقصدها الشارع قضت الحكمة أن يبين للناس ما يجب عليهم أن يؤمنوا به فى سبيل الحصول على تلك السعادة، وذلك عند التحقيق يرجع إلى الأصول التى اشتركت فيها الأديان السماوية جميعها من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. .... إلخ.

حدد الشارع هذه الأمور، وطلب من الناس الإيمان بها. والإيمان هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع عن دليل. ومن الواضح أن هذا الاعتقاد لا يحصله كل ما يسمى دليلا، وإنما يحصله الدليل القطعى الذى لا تعتريه شبهة.

طريق ثبوت العقيدة:

- وقد اتفق العلماء على أن الدليل العقلى الذى سلمت مقدماته، وانتهت فى أحكامها إلى الحس أو الضرورة يفيد ذلك اليقين ويحقق الإيمان المطلوب.

أما الأدلة النقلية فقد ذهب كثير من العلماء إلى أنها لا تفيد اليقين. ولا تحصل الإيمان المطلوب، ولا تثبت بها وحدها عقيدة [١٥]. قالوا: وذلك لأنها مجال واسع لاحتمالات كثيرة تحول دون هذا الإثبات، والذين ذهبوا إلى أن الدليل النقلى يفيد اليقين ويثبت العقيدة شرطوا فيه أن يكون قطعيًا فى وروده،

(١٦) العلميات: هي الأمور والمسائل المتصلة بالاعتقاد وأصول الدين

قطعيًا فى دلالته، ومعنى كونه قطعيًا فى وروده ألا يكون هناك أى شبهة فى ثبوته عن الرسول ﷺ، وذلك إنما يكون فى المتواتر فقط. ومعنى كونه قطعيًا فى دلالته أن يكون نصًا محكما فى معناه، وذلك إنما يكون فيما لا يحتمل التأويل. فإذا كان الدليل النقلى بهذه المثابة أفاد اليقين وصلح لأن تثبت به العقيدة.

وأمثلة ذلك فيما ورد إلينا آيات القرآن التى تحدثت عن التوحيد والرسالة واليوم الآخر وما إلى ذلك من أصول الدين؛ فقد جاءت - كما هى قطعية فى ورودها - قطعية فى دلالتها، لا تحتمل أكثر من معناها:

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (محمد: ١٩)

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (الإخلاص: ١ - ٤)

﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾ (التغابن: ٧)

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (يس: ٧٩)

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٨٥)

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ (البقرة: ١٧٧)

هذا هو شأن العقائد وطريق ثبوتها. ولابد أن يعم العلم بها جميع الناس ولا يختص بطائفة دون أخرى، لأنها أساس الدين وبها يكون المرء مؤمنًا، فكيف يتصور فى مؤمن أن يجهلها؟ ومن مقتضيات هذا العلم العام بها ألا يقع خلاف بين العلماء فى ثبوتها أو نفيها.

النظريات الخلافية:

ومن هنا نستطيع أن نقرر أن العلميات [١٦] التى لم ترد بطريق قطعى، أو وردت عن طريق قطعى ولكن لابسها احتمال فى الدلالة فاختلف فيها العلماء، ليست من العقائد التى يكلفنا بها الدين، والتى تعتبر حدًا فاصلا بين الذين يؤمنون والذين لا يؤمنون!.

وإنك لتجد كثيرًا من هذا النوع فى كتب التوحيد إلى جانب العقائد التى كلفنا الله -تعالى- أن نؤمن بها، فهى تذكر إلى جانب وجود الله -تعالى- ووحدانيته والرسل واليوم الآخر مسائل: رؤية الله -تعالى- بالأبصار، وزيادة الصفات على الذات، ومرتكب الكبيرة، وما يكون آخر الزمان من ظهور المهدى والدجال والدابة والدخان ونزول عيسى وما إلى ذلك مما يذكر

في مثل (خريدة الدردير) و(جوهرة اللقاني) وغيرهما.

والتاريخ العلمي يدل على أن هذه مسائل جَرَّ إليها البحث في العقائد حين تعددت الفرق وكثرت الآراء والمذاهب الكلامية، فكانت محل اجتهاد بين العلماء كل يرى رأيه فيها، ويدلي بحجته على ما يرى، ملتمسًا الوصول إلى ما يلائم في نظره العقيدة المتفق عليها.

وأمثلة ذلك كثيرة: منها أن المسلمين جميعًا قد اتفقوا على أن الله تعالى منزه عن كل نقص، متصف بكل كمال. فهذه عقيدة قاطعة يعلمها كل مؤمن ولا يختلف فيها عالم مع عالم، ولكن البحث جر إلى مسائل تتصل بها: هل يجب على الله -تعالى- أن يفعل الأصلح لعباده؟ هل العبد خالق لأفعال نفسه الاختيارية؟ هل المعاصي التي يفعلها العباد مرادة لله؟ فاختلف العلماء في هذه المسائل.

رأى المعتزلة أن ترك الأصلح، وتعذيب العبد على شيء لم يفعله، وإرادة القبيح، نقص لا يليق بجلال الله -تعالى- وكماله، فذهبوا إلى وجوب الأصلح على الله -تعالى- ، وإلى أن العبد خالق لأفعال نفسه، وإلى أنه تعالى لا يريد المعاصي.

(١٦) انظر «الملل والنحل» لابن حزم، و«القواعد الكبرى»، للعز بن عبد السلام، وغيرهما من كتب الأصول والكلام.

ورأى غيرهم أن إيجاب شـــىء على الله -تعالى- ، وعجزه عن خلـق ما يفعله العبد، وحصول مالا يريد فى ملكه، نقص لا يليق بجلال الله -تعالى- وكماله فذهبوا إلى أن الله -تعالى- لا يجب عليــه فعل الأصلح، وإلى أنــه خالق أفعال العبــاد، وإلى أنه يريد المعاصى.

فأنت ترى أن هؤلاء جميعًا لم يختلفوا فى الأصل الذى كلفنا الله -تعالى- الإِيمان به، وهو تنزيه الله تعالى عن النقص ووصفه

بالكمال، ولكنهم اختلفوا فى أشياء: هل هى نقص فلا يتصف الله -تعالى- بها، أو ليست بنقص فيتصف بها، وقد ذكرت كتب التوحيد ما اتفقوا عليه وما اختلفوا فيه، وأوردت الأدلة النقلية التى استدل بها كلٌّ على ما يرى.

الاختلاف فيما لا قاطع فيه يمنع التأثيم:

على هذا النحو جرى الخلاف بين الفرق الإسلامية فى المسائل التى جر إليها البحث فى العقائد، وهو خلاف كخلاف الفقهاء فى أحكام الفروع التى لم يرد فيها نص قاطع محكم. خلاف لا يصح أن يُرمَى أحد فيه بأنه حاد عن الصراط المستقيم، أو ضل، أو فسق، أو أنكر مسألة من مسائل الدين ... إلخ[١٦] ولكن عصور التعصب المذهبى العنيف حملت للمسلمين تراثًا بغيضًا من التراشق بالتهم، والترامى بالفسوق والضلال، فتبادل الفقهاء ـ أصحاب الفروع ـ نوعًا من التهم، وتبادل المتكلمون ـ أصحاب العقائد ـ مثل ذلك، وتلقف المخدوعون من الخلف

* وضع الشيخ ضابطا وهو أن مسائلَ العقائد لابد أن تكون قطعية الورود والدلالة ومن ثم فالسنة المتواترة إذا كانت قطعية الدلالة تثبت بها مسائل الاعتقاد. وسيأتي كلام الشيخ في المسألة تفصيلا في الصفحات القادمة.

(١٧) وقد فسروا الزيادة بأنها رؤية الله.

(١٨) وقد قالوا: إن السياق يجعل المنظور إليه هو الله تعالى.

هـذه التهم وملأوا بهـا كتبهم، وأسـرفوا فى الاعتـداد بها حتى جعلوها مقياس ما يقبل من الآراء أو يرفض.

من هذا كله يتضح:

١ - أنه لابد فى العقيدة من أن يكون دليلها قطعيًا فى وروده وفى دلالته.

٢– وأن ما لم يكن دليله قطعيًا . فاختلف فيه العلماء ، لا يصح أن يعــد من العقائد ، ولا أن يكون رأىُ طائفة معينة فيه هو الحق دون سواه .

٣– وأن كتــب التوحيــد لم تقتصر علي ذكــر العقائد التى كلفنا الشــارع بها ، وإنما ذكرت بجانبهــا بعض النظريات العلمية التــى تعارضت فيهــا ظواهر النصوص فكانــت محل اجتهاد بين العلماء .

ونتيجة هذا كلــه : أن القول بأن كذا عقيدة يجب الإيمان بها لأن ظاهــر الآية أو المروى من الحديث يدل عليه ، أو لأنه مذكور فــى كتــب التوحيد ـ كل ذلك قول مــن لا يفهم معنى (العقيدة) ولا يعرف أساسها الذى تبنى عليه .

لاشــك أن هذه المبادئ التــى ذكرنا تنير ســبيل البحث لمن يريد معرفة الحق فيما هو من العقائد وما ليس منها ، وهى مبادئ مسلمة عند العلماء يعرف كل مطلع على كتبهم ومناقشاتهم أنه لا نزاع فيها .

القرآن .. وثبوت العقيدة

٣– وتطبيقًــا للمبــادئ التــى ذكرناهــا ، يتبيــن لنــا : أن الطريق الوحيد لثبوت العقائد هو القرآن الكريم* ، وذلك فيما كان

مــن آياته قطعى الدلالة (لا يحتمل معنيين فأكثر) ، كالآيات التى ذكرناها من قبل فى إثبات الوحدانية والرســالة ، واليوم الآخر .

وأمــا مــا كان غير قطعى فــى دلالته محتمــلا لمعنيين فأكثر ، فهذا لا يصلح أن يتخذ دليلا على عقيدة يحكم على منكرها بأنه كافر ، وذلك كالآيات التى استدل بها بعض العلماء على رؤية الله -تعالى- بالأبصار فى الدار الآخرة :

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾[17] (يونس : ٢٦)

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾[18]

(المطففين : ٢٢ ، ٢٣)

وقد قالوا إن السياق يجعل المنظور إليه هو الله تعالى :

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة : ٢٢ ، ٢٣)

ولم يُسَلِّمْ لهم آخرون من العلماء فهمهم فيها ، بل نفوا الرؤية المذكورة بآية أخرى :

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الأنعام : ١٠٣)

وإذن فثبوت العقيدة بالقرآن أو عدمه مبنى على قطعية الدلالة

---

(١٩) البزدوى .

(٢٠) ولا فرق فى ذلك بين أحاديث الصحيحين وغيرهما : انظر مسلم الثبوت والتحرير .

أو ظنيتهـا أما قطعية الورود فهذا لاشـك فيـه ، إذ القرآن كله قد وصل إلينا ـ كما أنزله الله -تعالى- ـ متواترا جيلا عن جيل .

السنة ... وثبوت العقيدة

منشأ ظنية السنة:

٤- وإذا كانت العقيدة لا تثبت إلا بنص قطعى فى وروده ودلالته ، كان لابد من تبيين المبادئ التى تقوم عليها قطعية السـنة أو ظنيتها .

وأول مـا يجب التنبـه له فى هـذا المقـام أن (الظنية) تلحق السـنة من جهتى الورود والدلالة ؛ فقد يكون فى اتصال الحديث برسـول الله ﷺ شـبهة فيكون ظنـى الورود ، وقـد يلابس دلالته احتمـال . فيكون ظنى الدلالة ، وقد يجتمع فيه الأمران : الشـبهة فى اتصاله ، والاحتمال فى دلالته ، فيكون ظنيًا فى وروده ودلالته ومتـى لحقت (الظنية) الحديث على أى نحو من هذه الثلاثة فلا يمكـن أن تثبت بـه عقيدة يكفر منكرها ، وإنمـا يثبت الحديثُ العقيدة وينهض حجة عليها إذا كان قطعيًا فى وروده وفى دلالته .

التواتر والآحاد:

ولكـى يتضح منـاط (القطعيـة والظنية) فـى ورود الحديث

(٢٠) ولا فرق فى ذلك بين أحاديث الصحيحين وغيرهما : انظر مسلم الثبوت والتحرير .

ينبغى أن نبين ما قرره العلماء فى (التواتر والآحاد) ليكون منارًا يهتدى به من يريد الوصول إلى الحق.

قَسَّمَ العلماء (السنة) إلى قسمين: ما ورد بطريق التواتر، وما ورد بطريق الآحاد. وضابط التواتر أن يبلغ الرواة حدًا من الكثرة تحيل العادة معه تواطؤهم على الكذب. ولابد أن يكون ذلك متحققًا فى جميع طبقاته: أوله ومنتهاه ووسطه، بأن يروى جمع عن النبى ﷺ، ثم يروى عنهم جمع مثلهم، وهكذا حتى يصل إلينا، وهو عند التحقيق رواية الكافة عن الكافة.

ويقول بعض علماء الأصول: (الخبر المتواتر هو الذى اتصل بك من رسول الله ﷺ اتصالاً بلا شبهة حتى صار كالمعاين المسموع منه، وذلك أن يرويه قوم لا يحصى عددهم، ولا يتوهم تواطؤهم على الكذب لكثرتهم وعدالتهم وتباين أماكنهم، ويدوم هذا فى وسطه وآخره كأوله، وذلك مثل: القرآن والصلوات الخمس، وأعداد الركعات، ومقادير الزكوات)[١٩].

الآحاد لا تفيد اليقين:

هذا هو التواتر الذى يوجب اليقين بثبوت الخبر عن رسول الله ﷺ، أما إذا روى الخبر واحد، أو عدد يسير ولو فى بعض طبقاته،

(٢١) كابن حزم فى كتابه «الأحكام».

فإنه لا يكون متواترًا مقطوعًا بنسبته إلى رسول الله ﷺ ، وإنما يكون (آحاديا) فى اتصاله بالرسول شبهة، فلا يفيد اليقين[٢٠] .

إلى هذا ذهب أهل العلم ومنهم الأئمة الأربعة: مالك وأبو حنيفة والشافعى وأحمد فى إحدى الروايتين عنه، وقد جاء فى الرواية الأخرى خلاف ذلك، وفيها يقول شارح مسلم الثبوت (وهذا بعيد عن مثله فإنه مكابرة ظاهرة) ، وقال البزدوى: (وأما دعوى علم اليقين ـ يريد فى أحاديث الآحاد ـ فباطلة بلا شبهة لأن البيان يرده؛ وهذا لأن خبر الواحد محتمل لا محالة، ولا يقين مع الاحتمال، ومن أنكر هذا فقد سفه نفسه وأضل عقله) .

وقال الغزالى: (خبر الواحد لا يفيد العلم وهو ـ أى عدم إفادته العلم ـ معلوم بالضرورة. وما نُقل عن المحدثين من أنه يوجب العلم فلعلهم أرادوا أنه يفيد العلم بوجوب العمل إذ يسمى الظن علما، ولذا قال بعضهم: خبر الآحاد يورث العلم الظاهر، والعلم ليس له ظاهر وباطن وإنما هو الظن) .

وقال الإسنوى: (وأما السنة فالآحاد منها لا يفيد إلا الظن) .

وقال البزدوى تفريعًا على أن خبر الواحد لا يفيد العلم: (خبر الواحد لما لم يفد اليقين لا يكون حجة فيما يرجع إلى الاعتقاد

لأنه مبنى على اليقين، وإنما كان حجة فيما قصد فيه العمل).

وقال الإسنوى: (إن رواية الآحاد إن أفادت فإنما تفيد الظن، والشارع إنما أجاز الظن فى المسائل العملية وهى الفروع دون العلمية كقواعد أصول الدين).

وهكذا نجد نصوص العلماء من متكلمين وأصوليين مجتمعة على أن خبر الآحاد لا يفيد اليقين، فلا تثبت به العقيدة، ونجد المحققين من العلماء يصفون ذلك بأنه ضرورى لا يصح أن ينازع أحد فى شىء منه، ويحملون قول من قال[21]: (إن خبر الواحد يفيد العلم) على أن مراده العلم بمعنى الظن كما ورد، أو العلم بوجوب العمل. على أن الكلام إنما هو فى إفادته العلم على وجه تثبت به العقيدة، وليس معنى هذا أنه لا يحدث علمًا لإنسان ما، فإن من الناس من يحدث العلمُ فى نفسه بما هو أقل من خبر الواحد الذى نتحدث عنه، ولكن لا يكون ذلك حجة على أحد، ولا تثبت به عقيدة يكفر جاحدها، فإن الله تعالى لم يكلف عباده عقيدة من العقائد عن طريق من شأنه ألا يفيد إلا الظن، ومن هنا يتأكد أن ما قررناه من أن أحاديث الآحاد لا يفيد عقيدة ولا يصح الاعتماد عليها فى شأن المغيبات قولٌ مجمع عليه وثابت بحكم الضرورة العقلية التى لا مجال للخلاف فيها عند العقلاء!

(٢٢) انظر مسلم، الثبوت، والتحرير، ومقدمة ابن الصلاح.

ندرة المتواتر:

وإذ قد عرفنا الفرق بين مناط القطعية فى الورود وهو التواتر، ومناط الظنية وهو الآحادية، فهناك بحث آخر يتصل بالتواتر ولابد من النظر فيه، هذا البحث هو: هل يوجد المتواتر فى الأحاديث المروية فى الكتب المدونة؟ وقد اختلف العلماء فى الجواب عن ذلك: فذهب قوم إلى أنه لا يوجد حديث متواتر فيما روى لنا من الأحاديث ودُون فى الكتب، ولعل هؤلاء بنوا رأيهم هذا على اشتراط عدم الإحصاء فى رواة المتواتر، وهو مذهب لطائفة من العلماء كما تبين مما نقلناه فى تعريف المتواتر. وقال ابن الصلاح: (لا يكاد يوجد المتواتر فى رواياتهم، من سئل عن إبراز مثال له فيما يروى من أهل الحديث أعياه تطلبه، وحديث (إنما الأعمال بالنيات) ليس من ذلك السبيل وإن نقله عدد التواتر وزيادة، لأن ذلك طرأ فى وسط إسناده ولم يوجد فى أوله. نعم حديث (من كذب علىّ) نراه مثالاً لذلك، فإن رواته أزيد من مائة صحابى وفيهم العشرة المبشرون بالجنة، ولا يعرف حديث يروى عن أكثر من ستين صحابيا إلا هذا الحديث الواحد).

وذهب آخرون إلى أن المتواتر كثير فى هذه الكتب. قالوا: (إن هذه الكتب المشهورة المتداولة بأيدى أهل العلم شرقًا وغربًا مقطوع بصحة نسبتها إلى مصنفيها، فإذا اجتمعت على إخراج حديث، وتعددت طرقه تعددًا تحيل العادة معه تواطؤهم

علـى الكـذب إلى آخر الشـروط أفاد ذلك العلـم اليقينى بصحة نسبته إلى قائله، ومثل ذلك فى الكتب كثير)[٢٢].

وليـس بنـا حاجة إلى أن نعـرف مدى هذه الكثـرة التى يراها هؤلاء، ويذكرونها فـى مقابلة القول بالعدم، أو فى مقابلة القول بالندرة وإعياء تطلب المثال، وإنما يهمنا أن نلفت النظر إلى أنه لا يحكم لحديث بالتواتر ـ حتى على أكثر هذه المذاهب توسعًا ـ إلا إذا اجتمعت فيه الشروط الآتية:

١ – أن تخرجه جميع كتب الحديث المشهورة المتداولة.

٢ – أن تتعـدد طرق إخراجه تعـددًا تحيل العادة معه التواطؤ على الكذب.

٣ – أن يثبت هذا التعدد فى جميع طبقاته: أوله وآخره ووسطه.

وإذن: فالحديـث الذى لـم تخرجه جميع الكتـب المتداولة المشـهورة، أو أخرجتـه جميعهـا ولكـن لا بطـرق متعـددة، أو أخرجتـه بطـرق متعددة ولكـن لا فى جميـع الطبقـات، بل فى بعضها دون بعض ـ لا يكون متواترًا باتفاق العلماء أجمعين!

الإسراف فى وصف الأحاديث بالتواتر وأسبابه:

ويجدر بنا بعد هذا أن نعرض لظاهرة غريبة شاعت فى الناس، وإن الحـق ليتقاضى فيهـا واجبه من العلماء المسـئولين أمام الله

-تعالى- وأمام الرسول ﷺ: تلك الظاهرة هي أنه على الرغم مما قرره العلماء في شأن المتواتر تحديدًا ووجودًا، وعلى الرغم من هذا التحفظ الشديد في الحكم لحديث مما دون في الكتب بالتواتر ـ نرى بعض المؤلفين قديمًا وحديثًا يسرفون في وصف الأحاديث بالتواتر، وقد يقتصدون فيخلعون عليها أوصافًا أخرى كالشهرة والاستفاضة والذيوع على ألسنة العلماء، وتلقى الأمة إياها بالقبول والثبوت في كتب التفسير وشرح الحديث، أو في كتب التاريخ والمناقب ... إلخ. وقد يشتط أناس في سلوك هذه السبيل، فنراهم يتتبعون مع هذا أسماء الصحابة والتابعين والأئمة والمؤلفين الذين جرى ذكرهم على ألسنة النقلة في رواية الحديث، وهم يعلمون أنها روايات ضعيفة لا تصبر على النقد، وأن هذه الأسماء التي يحرصون على جمعها توجد في كل حديث حتى في الأحاديث الموضوعة، ولكنهم مع ذلك يجمعونها، ويجتهدون في عدها وإحصائها وذكر الكتب التي اشتملت عليها لأنهم يريدون أن يخطفوا أبصار العامة، ويستغلوا عاطفتهم الدينية، ويزعموا لهم أن هذا الحديث أو تلك الأحاديث قد وردت عن نبيكم في هذه الكتب الكثيرة،

(٢٣) وقد روى عن الإمام أحمد أنه قال: أربعة أحاديث تدور بين الناس في الأسواق ولا أصل لها ... إلخ.

(٢٤) وفي نخبة الفكر عن بعض الكرامية والمتصوفة: «إباحة الوضع في الترغيب والترهيب، انظر مسلم، الثبوت.

(٢٥) انظر مقدمة ابن الصلاح.

وعلى لسان هذا الجم الغفير من الرواة بين صحابة وتابعين، فهى متواترة لاشك فى تواترها، وهى متصلة بالرسول ﷺ لاشك فى اتصالها، ومن حاول الطعن فيها؛ أو الحط من درجتها، فقد ضل ضلالاً بعيدًا، وحاد عن سبيل المؤمنين!

ولهذه الظاهرة أسباب:

منها؛ وقد يكون أقلها خطرًا، اشتهار الحديث فى طبقة أو طبقتين فتسحب الشهرة على جميع طبقاته، ويحكم عليه حكما عامًا بالتواتر أو الشهرة من غير تحقيق ولا تمحيص؛ وقد لا يصل الحديث إلى حد الشهرة فى طبقة ما، ولكنه جاء فى (الخلافيات) فقهية أو كلامية فتعصب له أتباع المذاهب وخلعوا عليه وصف الشهرة أو التواتر تأييدًا لمذهبهم، وتناقلته الكتب، موصوفًا بذلك منسوبًا إلى جمع من رجال الرأى والمذهب فيخاله الناس مشهورًا أو متواترًا وهو ليس بمتواتر ولا مشهور!.

ولقد كان للقائمين (بالترغيب والترهيب) ونقل الملاحم والفتن وغرائب الأخبار التى تميل النفوس إلى التحدث بها والاستماع إليها، أثر عظيم فى خلع أوصاف الشهرة والتواتر على أنواع خاصة من الأحاديث التى ليست بمشهورة ولا متواترة بل ربما كانت غير صحيحة(٢٣)، وقد تأثرت بذلك طبقة من الخاصة لم تعن بتحقيق الرواية، ولا بمعرفة درجة الحديث، واكتفت

بنقل ما يقوله هؤلاء وإجرائه على ألسنتهم وفى كتبهم حتى شاع واشتهر.

وإنما استباحوا ذلك معتمدين على ما قرره بعض علماء المصطلح من (جواز التساهل فى الأسانيد ورواية ماسوى الموضوع[٢٤] من أنواع الأحاديث الضعيفة من غير اهتمام ببيان ضعفها فيما سوى صفات الله تعالى وأحكام الشريعة من الحلال والحرام وغيرهما، وذلك كالمواعظ والقصص وفضائل الأعمال وسائر فنون الترغيب والترهيب مما لا تعلق له بالأحكام والعقائد)[٢٥].

وبذلك رووا الأحاديث الضعيفة بل الموضوعة، ثم توسعوا فوصفوا الآحاد بالتواتر، والضعيف بالصحيح، وتناسوا مقاييس التواتر والآحادية، ومقاييس الصحة والضعف، ومن هنا رأينا من يصف (المعجزات الحسية) كانشقاق القمر وتسبيح الحصى وكلام الغزالة وحنين الجذع بالتواتر مع أنها غير متواترة، وإنما هى آحادية كما قرره علماء الأصول، وكذلك رأينا من يصف أخبار المهدى والدجال ويأجوج ومأجوج وما إلى ذلك مما يذكر باسم (أشراط الساعة) بالشهرة أو التواتر.

بقى بعد هذا أمر لابد من تقريره: وهو أن تلك الأحاديث كيفما كانت ليست من قبيل المحكم الذى لا يحتمل التأويل حتى تكون

قطعية الدلالة، فقد تناولتها أفهام العلماء قديمًا وحديثًا ولم يجدوا مانعًا من تأويلها. وقد جاء في شرح المقاصد ـــ بعد أن قرر مؤلفها أن جميع أحاديث أشراط الساعة آحادية ـ ما نصه: (ولا يمتنع حملها على ظواهرها عند أهل الشريعة ... وأول بعض العلماء النار الخارجة من الحجاز بالعلم والهداية سيما الفقه الحجازى، والنار الحاشرة للناس بفتنة الأتراك، وفتنة الدجال بظهور الشر والفساد، ونزول عيسى عليه السلام باندفاع ذلك وبدو الخير والصلاح ... إلخ).

ومن ذلك نرى أن السعد(المقصود السعد التفتازاني) لا يقرر وجوب حملها على ظواهرها حتى تكون من قطعى الدلالة الذى يمتنع تأويله، وإنما يقرر بصريح العبارة (أنه لا مانع من حملها على ظواهرها) فيعطى بذلك حق التأويل لمن انقدح فى قلبه سبب للتأويل، ثم يحدث عن بعض العلماء أنهم سلكوا سبيل التأويل فى هذه الأحاديث فعلا، ويبين المعنى الذى حملوها عليه، ولاشك أن هذا لم يكن منه إلا لأنه يعتقد ـ كما يعتقد سائر العلماء الذين يعرفون الفرق بين ما يقبل التأويل وما لا يقبله ـ أن ما تدل عليه ألفاظ تلك الأحاديث ليس عقيدة يجب الإيمان بها، فمن أداه نظره إلى أن يؤمن بظاهرها فله ذلك، ومن أداه نظره إلى تأويلها فله ذلك، شأن كل ظنى فى دلالته.

آراء العلماء في الإجماع:

٥- لا أكاد أعرف شيئًا اشتهر بين الناس أنه أصل من أصول التشريع فى الإسلام، ثم تناولته الآراء واختلفت فيه المذاهب من جميع جهاته، كهذا الأصل الذى يسمونه «الإجماع» فقد اختلفوا فى حقيقته: فمنهم من رأى أنه «اتفاق جميع المجتهدين من أمة محمد ﷺ فى عصر من العصور على حكم شرعى»، ومنهم من رأى أنه «اتفاق أكثر المجتهدين فحسب» ومنهم من ذهب «إلى أنه اتفاق طائفة معينة فلا يعد اتفاق غيرها إجماعًا». ثم اختلف هؤلاء فى هذه الطائفة مَنْ هى؟ فقيل (الصحابة) وقيل (أهل المدينة) وقيل (أهل البيت) وقيل (الشيخان: أبو بكر وعمر) وقيل (الأئمة الأربعة) ... إلخ.

واختلف الذين قالوا بالجميع: هل الإجماع بهذا المعنى ممكن متصور الوقوع، أو هو غير ممكن لأن الاجتهاد ليس له مقياس بارز متفق عليه بين العلماء، ولأن المجتهدين غير محصورين فى بلد واحد أو إقليم واحد؟.

واختلف الذين قالوا بإمكانه وتصور وقوعه: هل يمكن

معرفتــه والاطلاع عليه أو لا ؟ وممــن روى عنه المنع الإِمام أحمد –رضــي الله عنــه– إذ يقول فى إحــدى روايتين عنــه : من ادعى وجود الإِجماع فهو كاذب .

واختلــف الذيــن قالــوا بإِمكان معرفتــه والاطــلاع عليه : هل هــو حجة شــرعية فيجب العمل به على كل مســلم أو ليس حجة شرعية فلا يجب العمل به ؟ .

واختلف الذين قالوا إنه حجة شــرعية : هل ثبتت حجته بدليل قطعــى يكفر منكره ، أو بدليل ظنى فلا يكفر ؟ وهل يشــترط فى وجــوب العمل بــه أن ينقل إلينــا بالتواتر أو يكفــى أن ينقل ولو بالآحــاد ؟ وهــل يشــترط أن يبلغ المجمعــون عــدد التواتر أو لا يشــترط ؟ وهل يشــترط أن يصــرح الجميع بالحكم مشــافهة أو كتابة ، أو لا يشــترط فيكفى تصريح بعضهم وســماع الباقين مع سكوتهم ؟ . . . إلخ .

وكما اختلفوا فى حقيقته وفى حجيته اختلفوا فيما يكون فيه من أحكام : فقال قوم : إنه حجة فى العلميات والعمليات جميعًا ، وقال غيرهم : إنــه حجة فى العمليات فقط . ومن ذلك كله يتبين

أن حجية الإِجماع فى ذاتها غير معلومة بدليل قطعى فضلا عن أن يكون الحكم الذى يثبت به معلومًا بدليل قطعى فيكفر منكره.

شيوع حكاية الإجماع فى المسائل الخلافية:

ولعل اختلاف العلماء فى الإِجماع على هذا النحو يفسر لنا ظاهرة منتشرة فى كتب القوم وهى حكاية الإِجماع فى كثير من المسائل التى ثبت أنها محل خلاف بين العلماء، وذلك من جهة أن كل من حكى الإِجماع فى مسألة محل خلاف قد بنى حكايته على ما يفهمه هو أو يفهمه إمامه أو الطائفة التى ينتمى إليها فى معنى الإِجماع وما يكفى لتحققه.

وعلى الرغم من ظهور السبب فى تلك الظاهرة فقد تأثر بها كثير من المتأخرين فخضعوا لها، وتوسعوا فيها تأييدًا لآرائهم فى المسائل الخلافية: فتجدهم فى علم الفروع يحكون الإِجماع على إلزام الطلاق الثلاث بكلمة واحدة، وعلى تحريم لحم الخيل، وعلى حل أكل الضب، وغير ذلك. وتجدهم فى علم أصول الأحكام يحكون الإِجماع على العمل بخبر الواحد، وعلى تقديم الإِجماع على النص عند التعارض، وعلى العمل بالقياس.

---

(٢٦) مراتب الإجماع.
(٢٧) رسالة الشافعى.
(٢٨) مراتب الإجماع.

وتجدهم فى علم الكلام يحكون الإجماع على رؤية الله -تعالى- بالأبصار، وعلى ظهور المهدى، والدجال، ونزول عيسى، وما إلى ذلك من المسائل العلمية والعملية التى ثبت فيها الخلاف، ولم تكن محل قطع وإجماع.

ولقد كان فى وسعهم أن يقيدوا ذلك بالإجماع الطائفى أو المذهبى، ولكنهم قصدوا أن يرسلوا كلمة الإجماع ليسجلوا على المخالف لوازمها الشائعة بين الناس: من مخالفة سبيل المؤمنين، ومشاقة الله -تعالى- ورسوله ﷺ، وخرق اتفاق الأمة، إلى غير ذلك مما يتحرجه المسلم ويخشى أن يعرف به عند العامة. وكثيرًا ما نراهم يردفون حكايتهم للإجماع بقولهم (ولا عبرة بمخالفة الشيعة والخوارج) أو (بمخالفة المعتزلة والجهمية) ونحو ذلك مما يخيفون به، وبهذا امتنع كثير من العلماء عن إبداء رأيهم فى كثير من المسائل التى هى محل خلاف ضنًا بسمعتهم الدينية، فوقف العلم، وحرمت العقول لذة البحث، وحيل بين الأمة وما ينفعها فى حياتها العملية والعلمية.

وفى مثل هؤلاء الذين يحكون الإجماع فى مواضع الخلاف

(٢٩) يراجع ما كتبه صاحب تفسير المنار عند (آية ٥٩ من سورة النساء الجزء الخامس): ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ .

يقول ابن حزم: (ويكفى فى فساد ذلك أنا نجدهم يتركون فى كثير من مسائلهم ما ذكروا أنه إجماع، وإنما نحوا إلى تسميته إجماعًا عنادًا منهم وشغبًا عند اضطرار الحجة والبراهين إلى ترك اختياراتهم الفاسدة[٢٦]).

الإجماع عند المحققين:

وقد كشف جهابذة العلماء عن حقيقة الإجماع التى تسمو عن الخلاف والتى هى حجة ملزمة عند الجميع؛ قال الشافعى: «ولست أقول، ولا واحد من أهل العلم: هذا مجمع عليه، إلا لما لا تلقى عالمًا أبدًا إلا قاله لك، وحكاه عمن قبله، كالظهر أربع ركعات وكتحريم الخمر وما أشبه هذا[٢٧]». وقال ابن حزم: (وصفة الإجماع هو ما تُيقن أنه لا خلاف فيه بين أحد من علماء الإسلام، ونعلم ذلك من حيث علمنا الأخبار التى لا يتخالج فيها شك مثل أن المسلمين خرجوا من الحجاز واليمن ففتحوا العراق وخراسان ومصر والشام، وأن بنى أمية ملكوا دهرًا طويلاً ثم ملك بنو العباس، وأنه كانت موقعة صفين والحرة وسائر ذلك مما يعلم بيقين وضرورة)[٢٨].

(٣٠) التحرير.
(٣١) فى القسم الثالث من الكتاب ـ مصادر الشريعة ـ عودة إلى الإجماع وتحقيق القول فيه.

ولا يخفى أن معنى ما ذكره الشافعى وابن حزم أن الإجماع لا يكون إلا فيما هو معلوم من الدين بالضرورة، وفيما كان طريق العلم به هو التواتر الذى يفيد قطعية الورود وانتفاء الريب، فهذا هو الإجماع الذى تتم به الحجة ولا يصح أن يخالف، ولا ريب أن العمل فى مثل هذا لا يكون عملاً بالإجماع من حيث هو إجماع؛ وإنما هو عمل بما تلقته الكافة عن الكافة، مما لا شبهة فى ثبوته عن صاحب الشرع، وأن الإجماع فيه لم يكن إلا أثرًا من آثار الثبوت على هذا الوجه، فلا يكون مصدرًا له ولا أصلاً فى ثبوته.

ومن هنا قرر العلماء أن منكر حجية الإجماع لا يكفر، فى حين أنهم حكموا بالكفر على من أنكر المجمع عليه.

هذا وقد رأى بعض الباحثين أن الإجماع الذى كان يرجع إليه، ويجرى على الألسنة فى الصدر الأول حيث لا نص هو إجماع بمعنى آخر غير هذا الإجماع الذى اصطلح عليه الأصوليون واشتهر بين الناس أنه حجة شرعية، واعتمدت عليه عصور التقليد فى سد باب الاجتهاد، وعصور التعصب فى الرمى بالتضليل والتفسيق والخروج عن سبيل المؤمنين[٢٩].

***

نعود بعد هذا فنقول : إن الذين ذهبوا إلى حجية الإجماع لم يتفقوا على شيء يحتج به فيه سوى الأحكام الشرعية العملية ، أما الحسيات المستقلة من أشراط الساعة وأمور الآخرة فقد قالوا : «إن الإجماع عليها لا يعتبر من حيث هو إجماع لأن المجمعين لا يعلمون الغيب ، بل يعتبر من حيث هو منقول عمن يطلعه الله على الغيب ، فهو راجع إلى الإخبارات فيأخذ حكمها ، وليس من الإجماع المخصوص بأمة محمد ﷺ لأن الحسي المستقبل لا مدخل للاجتهاد فيه ، فإن ورد به نص فهو ثابت به ولا احتياج إلى الإجماع ، وإن لم يرد به نص فلا مساغ للاجتهاد فيه[٣٠]» وعلى هذا تخضع جميع الأخبار التى تتحدث عن أشراط الساعة ومن بينها نزول عيسى إلى مبدأ القطعية والظنية فى الورود والدلالة ، وقد سلف بيان ذلك فى موضوع (السنة وثبوت العقيدة[٣١]) .

القسم الثانى

الشريعــة

قلنا فى التمهيد :

إن القرآن ـ وهو الأصل الجامع لحقيقة الإسلام ـ أرشد إلى أن الإسلام عقيدة وشريعة، وبينا فى القسم الأول العقائد التى طلب الإسلام الإيمان بها، وكانت فى حكمه الحد الفاصل بين الإسلام والكفر.

ونقرر هنا :

إن الشريعة اسم للنظم والأحكام التى شرعها الله، أو شرع أصولها، وكلف المسلمين إياها، ليأخذوا أنفسهم بها فى علاقتهم بالله، وعلاقتهم بالناس، وأنها على كثرتها ترجع إلى ناحيتين رئيسيتين :

ناحية العمل الذى يتقرب به المسلمون إلى ربهم، ويستحضرون به عظمته، ويكون عنوانًا على صدقهم فى الإيمان به، ومراقبته، والتوجه إليه، وهذه الناحية هى المعروفة فى الإسلام باسم «العبادات».

وناحية العمل الذى يتخذه المسلمون سبيلاً لحفظ مصالحهم، ودفع مضارهم، فيما بينهم وبين أنفسهم، وفيما بينهم وبين الناس، على الوجه الذى يمنع المظالم، وبه يسود الأمن والاطمئنان، وهذه الناحية هى المعروفة فى الإسلام باسم «المعاملات» وتشمل ما يتعلق بشئون الأسرة والميراث، وما

يتعلـق بالأمـوال والمبادلات، وما يتعلـق بالعقوبات، وما يتعلق بالأمة الإِسلامية وعلاقتها بغيرها.

والعبادات هـي: الصلاة، والصوم، والـزكاة، والحج. ونظرًا إلـى أن المقصود من هذه العبـادات الأربع ـ مضمومة إلى الإِقرار بوحدانيـة الله ورسـالة محمـد ﷺ ـ هو تطهير القلـب، وتزكية النفـس، وقـوة مراقبـة الله، التـى تبعـث علـى امتثـال أوامـره، والمحافظـة على شـرائعه فى جميع نواحيهـا، كانت هى العمد التـى يبنـى عليها الإِسـلام، وفى ذلـك يقول النبـى ﷺ: «بنى الإِسـلام على خمس، شـهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسـول الله، وإقـام الصلاة، وإيتـاء الزكاة، وصوم رمضـان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا».

الباب الأول
العبــادات
الصــلاة

فالصــلاة عبــادة بدنيــة ، فرضهــا الله على المســلم فــى اليوم والليلــة خمس مــرات ، فى أوقات محدودة ، يقف فيها مســتقبلاً بوجهــه ــ أينما كان ــ جهة المســجد الحرام الكائــن بمكة ، ثم يفتتحهــا بالتكبير «الله أكبر» ، ثم يقرأ فاتحة الكتاب وما يحفظ من آياته ، متدبرًا معنى ما يقرأ ، ثم «يركع» ينحنى حتى يســتوى ظهــره ممســكًا ركبتيه بيديه ويقول فى ســره فــى أثناء ركوعه : سبحان ربى العظيم ، ثم يرفع رأسه حامدًا لله قائلاً : سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ، ثم يخر ساجدًا واضعًا جبهته على الأرض ، ويقــول فى أثناء ســجوده : ســبحان ربــى الأعلى ، ثم يرفع رأســه مكبــرًا ، حتى يطمئن فى جلســته ، ثم يعود إلى الســجود كالمرة الأولى ، وتسمى هذه الأعمال «ركعة» .

وهذه الصلوات الخمس هى :

أولاً : صــلاة الصبح التى يؤديها المســلم فــى أول يومه ، فيما بين الفجر وشروق الشمس ، ركعتان ، يجلس فى ثانيتهما جلسة يحيى فيها مولاه ، ويشهد بوحدانيته ، ورسالة محمد ﷺ ، بصيغة

مأثورة عن الرسـول ﷺ ، ثم يسـلم على اليمين وعلى الشمال ، بكلمة : «السلام عليكم ورحمة الله» .

ثانيًـا : ثم صلاة الظهـر المحدد لها ما بيـن الظهر ومنتصف المدة التى بينه وبين غروب الشمس .

ثالثًـا : صـلاة العصـر المحدد لها بيـن هـذا المنتصف وبين غروب الشمس ، والصلاتان رباعيتان : أربع ركعات ، بضم اثنتين بعد الجلسـة الأولى إلى الركعتين الأوليين ، ويؤخر السـلام إلى الجلسـة الثانية ، على رأس الركعتين الأخريين ، بعد أن يقرأ فيها التشهد كالأولى .

ورابعهـا : صـلاة المغرب ، وهى ثلاث ركعـات ، وحدد لها ما بين غروب الشمس ، وزوال شفقها من الأفق .

وخامسـها : صـلاة العشـاء ، المحدد لهـا ما بين زوال شـفق الشـمس ، إلى ما قبـل طلوع الفجر ، وهى الصـلاة الأخيرة ، التى يستقبل بها المسلم ليله ، وهى أربع ركعات كالظهر والعصر .

وهـذه الصلوات الخمس يذكر بها المسـلم ربـه ، فى أوقاتها المتلاحقـة ، فى يومه وليلته ، وبها تتكـرر وقفته بين يديه ، وبها يحيى ذكره فى نفسـه وقلبه ، فتعظم مراقبته ، ويخشاه ويرجوه ، فيلتزم طاعته ، فى كل ما أمر ، وفى كل ما نهى ، ويؤديها المسلم

فى كل مكان : فى المسجد ، فى البيت ، فى الحقل ، فى المصنع ، فى المكتب ، فأينما أدركه وقتها صلاها .

صلاة الجماعة :

١- ويؤديها كذلك منفردًا ، ومع جماعة : تقف صفًا أو صفوفًا متراصة مستوية كوقفة الجند المنظم خلف واحد منهم ، يتقدمهم إمامًا ، ويتابعونه فى أفعالها .

وصلاة الجماعة فى الإسلام أفضل أنواع الأداء للصلاة ، لما فيها من التعارف والتآلف ، والتعاون والاجتماع ، فى الدعاء والذكر والخشوع لله رب العالمين .

صلاة الجمعة :

وفى الإسلام صلاة أسبوعية ، لا بد فيها من الجماعة ، وسماع المواعظ قبلها ، وهى تؤدى فى وقت الظهر من يوم الجمعة ، وهى ركعتان ، وهى المعروفة عندنا بصلاة الجمعة .

صلاة العيدين :

وكذلك فى الإسلام صلاتان تؤديان كصلاة الجمعة سنويًا ، فى صباح يومى العيدين الإسلاميين بعد شروق الشمس ، وهما : أول يوم بعد شهر رمضان ، وهو المعروف «بعيد الفطر» ، واليوم العاشر من ذى الحجة ، وهو المعروف «بعيد الأضحى» .

وهاتان الصلاتان معروفتان فى الإسلام باسم «صلاة العيدين» .

صلاة الجنازة :

وفــى الإِســلام بعد ذلــك «عبادة» يتجلــى فيها معنــى الوفاء، يقدمه أحياء المسلمين لموتاهم، وتلك هى المعروفة فى الإِسلام باســم «صلاة الجنــازة»، وهى تكــون أولاً : بتكفين الميت، وهو لفه فى ثياب غير مخيطة من رأسه إلى قدمه بعد غسله وتنظيفه.

وثانيًــا : بالصــلاة عليــه : يوضــع فى ســريره، ويقــف بعض الحاضريــن أو كلهــم يتقدمهم أحدهــم إمامًــا، وينتظمون خلفه صفوفًــا، ويكبرون أربع تكبيرات تتخللها قراءة الفاتحة والدعاء للميت.

وثالثًا : بدفنه فى المقبرة. ويرى الإِســلام أن المقبرة لا ترتفع عن ســطح الأرض إلا قليلاً ولا فرق فى ذلك بين أن يكون الميت نبيًا مرسلاً أو من آحاد المسلمين.

وبهــذه المناســبة نقــرر هنــا : أن الإِســلام ليس لــه بعد ذلك مراســم خاصــة فى الموتــى يتوقف أداؤهــا على أماكــن معينة أو أشخاص معينين أو طقوس معينة. والذى نسمعه فى تشييع موتى المســلمين ـ من أصــوات مرتفعة بالذكر والدعــوات، ونراه فى بعــض قبورهم من القباب والمقاصير والســتائر والعمائم ـ ليس منه شىء فى الإِسلام. وكذلك ما نراه من طواف بعض المسلمين حول بعض الأضرحة أو التمســح بها التماسًــا لبركتها ـ ليس من

الإِسلام في شيء، وإنما هي تقاليد أوحى بها الوهم والخيال، ونماها شياطين الإِنس المحترفون.

نعم، يرى الإِسلام زيارة المقابر للتذكرة والاعتبار.

النظافة للصلاة :

٢- ولا بد لصحة كل صلاة من النظافة المعروفة في الإِسلام (بالوضوء)، وهو غسل الوجه، واليدين إلى مفصل الذراعين، والرجلين إلى مفصل الكعبين، ومسح الرأس.

وإذا كان المسلم جنبًا وجب غسل البدن كله.

نظام الحياة اليومي للمسلم :

٣- وهذه الصلوات الخمس يمتاز بها المسلم من غيره في نظام حياته اليومي، وهو في غيرها من أعمال الحياة كسائر الناس: يزاول أعماله التي أعدته لها مواهبه والتي يكتسب منها عيشه وعيش أسرته، ويرعى أهله ومصالحه، ثم يأوي ليله إلى بيته ليستريح من عناء العمل.

والإِسلام لا يمنع المسلم أن يمتع نفسه في بعض الأوقات بمظاهر الطبيعة من مناظر جميلة وهواء طيب:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ ﴾ (الأعراف: ٣٢)

﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾
(الأعراف: ٣١)

يأبــى عليه أن يعتكف فــى معبد أو كهف ، ويقصر حياته على أداء هــذه الصلوات ومــا يماثلها ، بل يــرى أن عمله فى تحصيل معاشــه ، والمســاهمة مــع مواطنيه فــى تعمير الحيــاة ، لا تقل ـ مع حســن النية والقصــد ـ درجة عند الله عــن أداء هذه الصلوات التــى جعلــت وســيلة من وســائل الاســتعانة على مشــاق الحياة ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ ﴾ (البقرة: ٤٥)

وبذلك يكون الإسلام قد جمع للمسلم فى حياته اليومية بين ما يغذى روحه بالعبادة الآخذة بطرفى النهار وجزء من الليل ، وما يغذى مادته من المأكل والمشرب وطيب الحياة ونعيمها ، وهذا أســمى ما يحفظ للإنسـان علاقته بربه وعلاقتــه بالحياة ، وليس ذلك لغير المسلم.

الأذان:

٤ – هذا ، ومن شعائر الإسلام فى الصلوات الخمس أن يعلن للناس دخول أوقاتها ، بوساطة النداء المعروف باسم «الأذان» ، وهو صيغة محددة فى ألفاظها ، مأثورة عن النبى ﷺ بإلهام من الله عــز وجل ، وهى : «الله أكبر الله أكبر ، أشــهد أن لا إله إلا الله ، أشــهد أن لا إله إلا الله ، أشــهد أن محمدًا رسول الله ، أشهد أن

محمـدًا رسـول الله ، حى على الصلاة حـى على الصلاة ، حى علـى الفـلاح حى على الفـلاح ، الله أكبر الله أكبـر ، لا إله إلا الله » .

وهو نداء يذكر المسلم بأصل العقيدة ، ويدعو للقيام بحقها ؛ وهو المسارعة إلى الصلاة وسيلة الخير والفلاح ؛ ويختتم بتكبير الله وتعظيمه ، وتقرير وحدانيته .

الصلاة عنصر من العناصر المكونة لشخصية المؤمن :

٥- هـذا وقد عرض القـرآن الكريم للصلاة مـن جهات متعددة : عـرض لهـا فى مفتتـح أطول سـوره وأولها ـ بعـد الفاتحة ـ علـى أنها من أوصاف المتقين ؛ الذين ينتفعون بهذا الكتاب الكريـم ، والذين كانوا بتلك الأوصـاف على هدى من ربهم وكانوا هم المفلحين ، اقرأ :

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (البقرة : ١ – ٥)

وبهـذا الوضـع كانت الصلاة هـى العنصر الثانـى من عناصر الشخصية الإيمانية .

وعـرض لها باعتبارهـا عنصرًا من عناصر البـر والحق، الذى رسـمه الله لعباده ودعاهم إليـه، وجعله عنوانـًا على صدقهم فى الإِيمان، وعلى أنهم المتقون، واقرأ فى ذلك:

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٧)

عرض لها هكذا، ثم جعل إقامتها أول عمل بعد الإِيمان، يدل على صدقه، ويستحق به صاحبه أخوة المؤمنين:

﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ ﴾ (التوبة: ١١)

كما جعلها عنوانًا على التمسـك بالكتاب، وسبيلاً للحصول على أجر المصلحين:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ (الأعراف: ١٧٠)

أثرها فى تهذيب النفوس :

٦ - وكذلك بين القرآن أثرها فى تهذيب النفوس، ووقايتها من الفحشاء والمنكر، وتطهيرها من غرائز الشر، التى تفسد على الإنسان حياته :

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾

(العنكبوت : ٤٥)

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾

(المعارج : ١٩-٢٣)

وفى مقابلة هذا كله، جعل تركها عنوانًا للانغماس فى الشهوات، وسبيل الوقوع فى الغى والضلال، وسببًا من أسباب الخلود فى النار:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾

(مريم : ٥٩)

﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾

(المدثر : ٣٨-٤٧)

كمـا جعـل الغفلـة عنها وعـن معناهـا وروحها آية مـن آيات التكذيب بيوم الدين :

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ (الماعون : ١-٧)

ولعلنـا نـدرك أن فى الإتيان بهـا بين ما ذكر فى هذه السـورة إيمـاءً قويًا إلى أن السـهو عن روح الصلاة ـــ الذى يجعلها صورة جافـة ، لا يـؤدى حق الله فيها من خشـوع ومراقبة واستشـعار عظمة ـ سـبب قوى فى التكذيب بيوم الدين ، وإهانة اليتيم ، وإهمال حق المسـكين كما هو سـبب فى غرس شـجرة الرياء فـى القلوب ، وانصراف الإنسان عن فضيلة التعاون ، وعن البر بأخيه الإنسان .

وقد قرنها الله بعد هذا كله بالصبر ، وجعلهما عدة المؤمن فى التغلب على مشـاق هذه الحيـاة . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ (البقرة : ١٥٣)

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾

(البقرة : ٤٥ ، ٤٦)

الصلوات رحلات إلهية :

٧ - إن الصلوات الخمس خمس رحلات إلهية ، أوجبها الله على عباده فى أوقات متفرقة من اليوم والليلة ، يخلص فيها المؤمن من دنياه ، ويتفرغ لربه ، بالتكبير والمناجاة ، وطلب المعونة والهداية ، ويلقى فيها بنفسه فى كفالة الربوبية الرحيمة ، متمثلاً العظمة المطلقة ، التى تصغر أمامها كل عظمة فى هذه الحياة . وإن تلك الرحلات لجديرة أن تفرج همه ، وأن تخفف ويله ، وأن تحقق رغائبه الخيرة .

لقد كان من سنة النبى ﷺ إذا حزبه أمر أن يفزع إلى الصلاة ، وكان يقول : «جعلت قرة عينى فى الصلاة» :

الصلاة أقدم عبادة بدنية عرفت فى الرسالات الإلهية :

٨ - وقد كانت الصلاة ـ لما لها من الأثر العظيم فى تهذيب النفوس ، وتقريبها إلى ملأ الطهر ـ أقدم عبادة عرفت مع الإيمان ، ولم تخل منها شريعة من الشرائع ؛ وقد حكيت عن الأنبياء والمرسلين :

فإبراهيم عليه السلام يسكن ذريته بواد غير ذى زرع عند بيت الله المحرم ، ويقول :

﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ (إبراهيم : ٣٧)

ويجىء فى عهد الله إليه وإلى ولده إسماعيل :

﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾

(البقرة : ١٢٥)

وتنادى الملائكة أم عيسى عليه السلام :

﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾

(آل عمران : ٤٢ ، ٤٣)

وعيسى عليه السلام يحدث بنعمة الله عليه فيقول :

﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (مريم : ٣١)

وينوه الله بشأن إسماعيل فيقول :

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾

(مريم : ٥٥)

ولقمان يعظ ابنه بالإيمان والإحسان إلى الوالدين ، وبمراقبة الله فى السر والعلن ، ثم يوصيه بالصلاة فيقول :

﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ (لقمان : ١٧)

ويأخذ الله الميثاق على بنى إسرائيل ، فتكون إقامة الصلاة من أهم مواده وعناصره :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (البقرة: ٨٣)

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (المائدة: ١٢)

الصلاة تالية للإيمان :

وهكذا نجد مكانة الصلاة عند الله وفى دينه عنصرًا تاليًا لعنصر الإيمان، فى جميع الرسالات، وعلى ألسنة جميع الرسل. وقد جاء الإسلام فنسج على منوال الرسالات المتقدمة، وجعلها ركنًا من أركان الدين، وأفاض فى ذكر فوائدها ما أفاض، وأمر بالمحافظة عليها، وبالقيام فيها لله، مع القنوت والخشوع، وكمال التوجه إليه، والتفرغ له وقال :

﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ (البقرة: ٢٣٨)

عناية الإسلام ببيان صفتها وأحكامها :

٩ - نعم، لم يصل إلينا عن طريق موثوق به: كم كان عدد الصلاة فى السابقين، ولا كيف كانت صفتها وأحكامها. وقد جاء فى الإسلام - الذى أكمل الله به دينه - جميع ما يتعلق بالصلاة من هذا الجانب، فبين أنها خمس صلوات فى اليوم والليلة، وأنبأت الأحاديث القولية الصحيحة، والسنة العملية المتواترة منذ عهد النبى ﷺ إلى يومنا هذا، عن عددها وكيفيتها، وأوقاتها.

وقد ذكر منها فى القرآن صلاة الفجر، وصلاة العشاء، وذلك حيث يقول فى آية الاستئذان من سورة النور:

﴿ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ﴾ (النور: ٥٨)

وذكر صلاة الظهر بذكر وقتها فى قوله تعالى من سورة الإسراء:

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾

(الإسراء: ٧٨)

ودلوك الشمس: هو زوالها عن كبد السماء، وهو أول وقت الظهر. وقد قال كثير من المفسرين - أخذًا من الأحاديث التى

صحت عندهم ـ: «إن الصلاة الوسطى المذكورة فى آية المحافظة على الصلوات هى صلاة العصر».

الصلاة ليست مجرد عبادة شخصية:

١٠- والصلاة ليست ـ كما يظن كثير من المسلمين ـ مجرد عبادة شخصية، يقوم بها المؤمن فيما بينه وبين ربه، تقتصر فائدتها على تهذيب النفس؛ وإنما هى ـ مع ذلك ـ جعلت عن طريق الاجتماع لها ـ فرضًا كان الاجتماع أم سنة أم فضيلة ـ سبيلا لتعارف المؤمنين، وتفاهمهم فيما يحتاجون إليه من خير فى دينهم ودنياهم؛ وبذلك كان مكان اجتماعهم فى الصلوات الخمس أشبه بالنوادى التى يهرع إليها أهل الحى الواحد، فى أوقات متعددة معينة، على وجه منظم محدد، وفيها يتعارفون ويتبادلون المنافع والآراء فيما يحتاجون إليه جماعات وأفرادا.

وتحقيقا لهذه الغاية أوجب الجماعة ـ فى نطاق أوسع ـ على أهل البلدة الواحدة أو ما هو فى حكم البلدة الواحدة، كل أسبوع، وجعل ذلك شرطا فى صحة الصلاة التى تؤدى فى ذلك الاجتماع؛ وهى: «صلاة الجمعة» يجتمعون فيها للتعارف والتعاون، واستماع الوعظ والإرشاد، وبيان أحكام الله فيما يحل، وما لا يحل، وبذلك أخذت هذه الصلاة لون المحاضرات

والدروس الدينية : يجتمع لها المؤمنون لتلقى أحكام الله ومعرفة دينه، وصارت اجتماعات تعاونية ثقافية.

ولم يقف الدين الإسلامى فى الحث على الاجتماع عند هذا الحد الأسبوعى، بل أوجبه بصفة أعم وأوسع فى كل عام؛ لأداء صلاة العيدين، ثم أوجبه بصفة جامعة للمسلمين من كافة الأقطار، فى أداء ركن من أركان الدين، وهو «الحج» الذى يفد له المسلمون من كل فج إلى بيت الله الحرام، فى مكة منبع الهدى والنور؛ وهناك يجتمعون لأداء المناسك ورؤية المشاهد، وتذكر أماكن الوحى، وآثار النبى وصحبه، الذين قاموا بتركيز هذا الدين، ونشره على عباد الله فى كافة المعمورة.

اشتمال الصلاة على جميع أساليب التعظيم:

١١- ولايفوتنا فى هذا المقام لفت الأنظار إلى ما احتوت عليه أفعال الصلاة، وكيفيتها التى دلت عليها أفعال الرسول ﷺ وأقواله ـ من مظاهر التعظيم التى عرفت مفرقة فى أساليب التعظيم التى يقوم بها الناس بعضهم لبعض؛ فالناس يعظم بعضهم بعضا برفع الأيدى وبالقيام وبالانحناء وبالسجود وبالدعاء وبترداد أقوالهم... يفعل الناس ذلك كله فى تعظيم ملوكهم ورؤسائهم وأرباب النفوذ فيهم، ولكن لم تجرِ عادة الناس أن يجمعوا كل تلك الأساليب فى تعظيم

أحـد منهم، فشـرع الله الصـلاة اعترافـا بنعمتـه وعظمته، وجمـع فى كيفيتهـا جميع ما تفرق عند الناس من أسـاليب التعظيـم، فجعل افتتاحهـا بإعلان أن «الله أكبـر» من كل ما يـرون تعظيمه، مصحوبا ذلك «برفـع اليدين» معًا على وجه يمثـل فيـه وضعهما المعنى الذى اسـتقر فـى القلب حينما ينطق اللسـان بكلمة التكبير، ثـم جعل من أركانها «القيام» المصحـوب بتلاوة آيات مـن كتابه، وأوجـب فى كل صلاة وعلى كل مصل قراءة «الفاتحة»، التى تعتبر أم الكتاب، وقد جمعـت كل ما تفرق فيه نصًا وإشـارة. ثم الانحاء المعروف باسـم «الركوع» مصحوباً بالتكبير فى الانخفاض والرفع ثم يجىء «السجود» نهاية لما يتصور من وجوه التعظيم، وبذلك يكـون العبـد قد وقف مـن ربه فـى موضع العبوديـة الحقة، وكأن الله بتنظيم أسـلوب تعظيمه على هذا الوجه يلفت نظر المؤمنيـن إلى أن تعظيمه يجب ـ بمقتضى الإيمان بربوبيته وألوهيته ـ أن يكون فوق كل تعظيم عرفه الناس، فى تعظيم بعضهم لبعض، وأن هذه الصورة من التعظيم التى رسمها الله لنفسـه لايصح أن يعظم بها غيـره؛ كما لايصح أن ينتقصها المؤمن، أو أن يغير شـيئًا من أوضاعها أو أن يزيد فيها، فهو سبحانه المعبود، وهو المعظم، وقد شرع لنا طريق عبادته،

وأسلوب تعظيمه، وليس لأحد من خلقه أن يفكر أو يستظهر شيئًا غير ما رسمه فى تعظيمه بزيادة أو نقص.

ولعل هذا هو الأساس الذى بنى عليه حظر الابتداع فى الدين، وفى سبيله كثرت الأحاديث الصحيحة، فى التحذير من البدع، التى ينساق إليها الناس بناء على ما يتصورون من الزيادة فى معنى العبودية.

تيسير الله على عباده فى الصلاة:

١٢- وقد كان من رحمة الله بعباده، وهى رحمة تعم الخلق والتشريع، أنه فى الصلاة ـ مع هذا الرسم الذى رسم ـ راعى التيسير على عباده، فأدخل كثيرًا من وجوه اليسر على هذه الفريضة، وقد رأينا أن اليسر تناولها من جهات: تناولها من جهة أوقاتها، فأباح للمؤمن أن يجمع بين صلاتين فى وقت واحد، وقد اتفق الأئمة على هذا المبدأ غير أنهم اختلفوا فى مدى تطبيقه، فاقتصر بعضهم فيه على الجمع بين الظهر والعصر جمع تقديم، وقت الظهر بعرفه، وبين المغرب والعشاء جمع تأخير فى وقت العشاء بمزدلفة، ومنعوه فى غير هذين المكانين، وغيرهم أجازوه فى غير المكانين المذكورين، وأجازه بعضهم للسفر والمطر، وزاد بعضهم

جوازه للمريض الذى تلحقه المشقة بالتفريق، وللمرضى والمستحاضة، ولمن خاف ضررًا يلحقه فى معيشته بترك الجمع، وتوسع بعضهم فى جواز الجمع مطلقًا، بشرط ألا يتخذ ذلك خلقًا وعادة، حكى ذلك الشوكانى عن جماعة من العلماء، وقال صاحب فتح البارى: «وممن قال به ابن سيرين، وربيعة، وأشهب، وابن المنذر، والقفال الكبير»، وحكاه الخطابى عن جماعة من أصحاب الحديث، وحكاه غيره عن غيرهم.

وفى هذا من السعة واليسر، ما يتفق مع أساس اليسر الذى بنيت عليه الشريعة الإسلامية.

المؤمن يضع كل شىء موضعه:

ومن شأن المؤمن أن يضع العزائم فى محلها، والرخص فى محلها، وألا يتخذ الرخص سبيلا وعادة، بها يتحلل من أمر الله وتكليفه، والحكم فى هذا هو: «الإيمان والاطمئنان»، فليرجع المرء فيما يريد من رخصة أو عزيمة إلى إيمانه، والله عليم بذات الصدور.

اليسر داخل الصلاة من جميع نواحيها:

وكما دخل اليسـر الصلاة من جهة أوقاتهـا، دخلها أيضًا من جهـة عـدد ركعاتها، وفى هـذا الجانـب اتفق الأئمة ـــ أخذًا من نصوص التشـريع ـ على أن للمسـافر أن يقصر الصلاة الرباعية، فيصليها ركعتين، ولكنهـم اختلفوا: أهذا القصر فرض وواجب حتم على المسـافر أم سـنة وفضيلة؟. وإلى كل من الرأيين ذهب فريق من الأئمة.

وكمـا دخل اليسـر فى عـدد الركعات للمسـافر، دخل أيضًا فـى كيفيتها بوجه عام، فأبيحت من قعود، لمن عجز عن القيام، وبالإيمـاء لمن عجز عـن القعود، كما أبيحت فـى حالة الحرب من ركوب، وأبيح فيها من حمل السـلاح، وما يقتضيه الحذر من الأعداء.

وقـد تكفلت كتب الفقه ببيان «صـلاة الحرب»، وآراء الأئمة فيهـا بعد أن اتفقوا على تقرير مبدأ التيسـير على المحاربين فى أدائهـا، وأذكر فى هذا المقام قولـه تعالى عقب الأمر بالمحافظة على الصلوات:

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾ (البقرة: ٢٣٩)

وقوله تعالى:

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾

(النساء: ١٠١-١٠٣)

الزكـــاة

١- والزكاة عبادة مالية، عَنَى بها الإِســلام أن يمد الغنى يده إلى الفقير، بما يسد حاجته، وإلى المصالح العامة بما يحققها، وهــى واجبة على الغنــى فيما يفضل عن حاجتــه وحاجة من ينفــق عليهــم، من مالــه النقــدى، وقيــم أعيانــه التجارية، ومواشيه، وثمار زرعه، بنسب معروفة عند المسلمين، يقوم مجموعها بحاجة الفقير والمصالح، ولاترهق أربابها.

وزكاة النقــود والتجــارة تؤدى فى كل عام مــرة، وزكاة الزرع تؤدى فى كل زرعة.

وجهة الإسلام فى مشكلة المال:

٢- وبهذه العبادة وقف الإِسلام بالمسلمين فى المشكلة المالية ـ شــأنه فى كل شــرائعه ـ عند الحد الوسط الذى يقيهم شر الطغيان المالى المفسد، الذى تتكدس به الأموال عند بضعة أفــراد من الأمة، مــع حرمان كثرتها الغالبــة، ويقيهم كذلك شر الفوضى الماكرة المخربة التى تضيع بها جهود الأفراد، وتكدس الأموال فى اليد الحاكمة باسم «المجتمع».

فهــى تشــريع يحفــظ للفــرد اســتقلاله وحريتــه فــى العمل والكســب، ويحفــظ للمجتمــع حقــه علــى الفــرد فــى المعونة والتضامن، وبذلك يبرز المبدأ الإِسلامى العام وهو تحميل الفرد من حقوق الجماعة، وتحميل الجماعة من حقوق الفرد.

الزكاة بين الإطلاق والتحديد:

٣- وقد ظل القرآن فى عهديه ـ المكى والمدنى ـ يدفع المؤمنين بأساليب قوية إلى الإنفاق فى سبيل الله (سد حاجة الفقير، وإقامة المصالح) دون أن يحدد لهم الأنواع المالية التى منها ينفقون والمقادير التى لها ينفقون، تاركا ذلك إلى ما تخلقه دعوته السامية فى قلوبهم من الشعور الإيمانى الحى، والأريحية الكريمة التى تقتضيها الأخوة الدينية وتتحقق بها المسئولية العامة المشتركة، وقد جاء فى القرآن الكريم أنهم سألوا حين نزوله مرتين عما ينفقون؟ وكان الجواب فى المرتين يصرفهم عن تحديد ما ينفقون، ويكلهم إلى أريحيتهم وشعورهم أو يأخذ بهم إلى بيان موضع الإنفاق والبذل، واقرأ إن شئت قول الله تعالى من سورة البقرة:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ (البقرة: ٢١٩)

واقرأ منها مرة أخرى قوله:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ (البقرة: ٢١٥)

ظل القرآن هكذا يأمر بالإنفاق دون تحديد لما ينفق منه، حتى إذا ما تركز المسلمون واتسع نطاق حياتهم بالهجرة إلى المدينة، وصاروا أمة متميزة، لها منهجها الخاص فى الحياة، ولها هدفها

الـذى تعمل لـه ، وتهيأت فى ظل ذلك نفوسـهم لقبول التحديد ، امتد بيان الرسـول ﷺ إلى هذا العنصر بالتنظيم والتحديد ، على الوجه الذى يهدف إلـى صالح الفرد والأمة ، من جعل الزكاة ركنا مـن أركان الديـن ، وفريضة مـن فرائضه ، وبذلـك أعلنت فريضة الزكاة ، وقرنت بالصلاة وشـهادة التوحيد وكانت ثلاثتها عنوان الدخول فى الإسلام ، وعنوان الأخوة الدينية :

﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ﴾
(التوبة : ٥)

﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾
(التوبة : ١١)

ومـن هنا كانت وصية الرسـول لمعاذ حينما بعثـه واليًا على اليمـن : (إنك تأتى قومًا من أهل الكتاب فادعهم إلى شـهادة ألا إلـه إلا الله ، فإن هـم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقـة تؤخذ مـن أغنيائهم ، فترد إلى فقرائهـم ، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب) .

الزكاة من الأمة وإليها:

٤ - وإذا دل هذا التعليم النبوى الكريم على شىء ، فأول ما يدل عليـه هو أن الزكاة فى نظر الإسـلام ليسـت إلا صرف بعض أمـوال الأمة ، ممثلة فـى أغنيائها ـ إلى الأمة نفسـها ، ممثلة

فى فقرائها .

وبعبـارة أخـرى ليسـت إلا نقل الأمـة بعض مالهـا من إحدى يديها ، وهى اليد المشرفة التى استخلفها الله على حفظه وتنميته والتصـرف فيه ، وهى يـد الأغنياء ، إلى اليد الأخـرى ، وهى اليد العاملـة الكادحة التى لايفـى عملها بحاجتها أو التى عجزت عن العمل ، وجعل رزقها فيه ومنه ، وهى يد الفقراء .

ولعل هذا ما يوحي به القرآن حينما يقول :

﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ (النور : ٣٣)

وحين يقول بوجه عام :

﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ (الحديد : ٧)

ويوحى به كذلك قول الرسـول الكريم ﷺ فيما قاله لمعاذ : (إن الله افترض عليهم صدقة فى أموالهم تؤخذ من أغنيائهم فترد إلى فقرائهم) .

الاشتراكية فى الإسلام:

ومهمـا رفع دعاة الاشـتراكية رءوسـهم ونادوا بهـا فيما بين النـاس ، فإنك لسـت واجدًا فـى تعبيرهم ، ولا فـى واقع حياتهم ما يقرب من تلك الاشـتراكية النابعة من ضميـر الإيمان ، والتى يجعلها الإسـلام دينًا ، تقرن ـ كما قلنا ـ فى الدعوة إليه بالصلاة وشهادة التوحيد ، والتى يكون بها كل المال ملكا للأمة ، تحفظه

اليد المستخلفة فيه وتنميه، ثم تنتفع به كلها، يخرج من أحد جانبيها ويقع فى الجانب الآخر، فهو منها كلها، وهو إليها كلها، وما اليد المعطية واليد الآخذة إلا يدان لشخصية واحدة كلتاهما تعمل لخدمة تلك الشخصية، ولا خادم منها ولا مخدوم، وإنما هما خادمان لشخصية واحدة هى «شخصية المجتمع» الذى لا قوام له ولا بقاء إلا بتكافل هاتين اليدين على خيره وبقائه، ولعل بهذا يظهر مرة أخرى معنى «الوسطية» التى حل بها الإسلام المشكلة المالية، تلكم المشكلة التى ظل بها العالم فى أمسه وحاضره يتردد بين طرفى الإفراط، بالطغيان المالى، والتفريط، بإلغاء الملكية الفردية، وبذلك تقطعت أواصر الرحم الإنسانى، وسخر الأغنياء الفقراء، وثار الفقراء على الأغنياء، ونشبت الحروب المدمرة، وأفلست دعاوى المدعين، الذين يخدمون أنفسهم فى واقع الأمر ويتظاهرون بخدمة المجتمع الإنسانى، وما ربك بغافل عما يفعلون.

أنواع الأموال ومقادير الزكاة:

٥ - كانت الكلمة التى كثر تعبير القرآن بها عما يجب إخراج الزكاة منه، هى هذه الكلمة العامة التى تشمل كل ما يتملكه الإنسان، من نقد، وماشية، وزرع ويتخذه وسيلة لعيشه وحفظ كيانه وقضاء مصالحه (كلمة أموال).

﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾

(التوبة: ١٠٣)

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾
(البقرة: ٢٦١)

﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾
(المعارج: ٢٤، ٢٥)

وجاء فـى بعض الآيات ذكر الذهب والفضة وذكر الثمار التى تخرج من الأرض:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (التوبة: ٣٤)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأنعام: ١٤١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ (البقرة: ٢٦٧)

وقـد وقـف القرآن عند هـذا الحد الذى قرر به مبـدأ الإنفاق، وأرشـد فيه إلـى بعض أنواع الأمـوال وترك تفصيـل الأنواع التى يجب الإنفاق منها، كما ترك بيان المقادير التى يجب إنفاقها.

بيـــان الرســـول:

وســـيرًا مـــع واجب الرســـالة، والهيمنـــة على تنفيـــذ الأحكام الإلهيـــة، بيَّن الرســـول ﷺ فى التطبيق العملـــى أنواع المال التى تجب فيها الزكاة، كما بيَّن المقادير التى تخرج من تلك الأنواع، وكان ممـــا اجتمعـــت الأمة علـــى وروده عنه ﷺ فـــى ذلك: النقد التعاملـــى (الذهب والفضة) والمواشـــى (الإبـــل والبقر والغنم) والزرع (الحنطة والشـــعير) والثمار (الثمر والزبيب)، وبقى ما وراء ذلـــك من الأنواع والمقادير محـــل اجتهاد ونظر، يعرف كل ذلك بالرجـــوع إلى كتب الحديث والأحـــكام ففيها المتفق عليه والمختلف فيه.

الزكاة ركن دينى عام:

٦ – على رغم ما اعتقد من أن الخلاف النظرى يدل على حيوية فكرية قوية وعلى ســـماحة النظـــام الذى يكون فى ظلـــه ذلك الخلاف ـ علـــى الرغـــم من ذلك، فكـــم يضيق صدرى حينمـــا أرى أن مجال الخـــلاف بين الأئمة فى تطبيـــق هذه الفريضة يتســـع على النحو الذى نراه فى كتب الفقه والأحكام.

هذه الفريضة التى كثيرًا ما تقرن بالصلاة حتى قال الصديق – رضي الله عنه– مبينا أهميتها: (والله لأقاتلن من فرق بين الزكاة والصلاة)، هذه الفريضة يجب أن يكون شـــأن المسلمين فيها، أو شأنها عندهم جميعًا كشأنهم في الصلاة، وشأن الصلاة فيهم تحديد بيّن واضح، لا لبس فيه ولا خلاف «خمس صلوات فى اليوم والليلة».

هــذه الفريضة التى هى ركن من أركان الإِســلام يرتد من جحدها والتى ربطت بها طهارة المســلمين وتزكيتهــم، وربطت بها الأخوة الدينيــة فيما بينهم، هذه الفريضة تكون معظم جهتها فى الأصل والمقــدار محل خلاف بيــن العلماء! وبالتالــي تكون باختلافهم فيهــا مظهــر تفرق فــي الواجــب الدينــى بيــن المســلمين تبعًا لاختلافهم فى التقليد وتعدد السبل!!

هذا يزكى مال الصبى والمجنون، وذاك لايزكيه، وهذا يزكى كل ما يستنبته الإِنسان من الأرض، وذلك لايزكى إلا نوعًا خاصًا أو ثمــرة خاصة، وهذا يزكى الدَّيــن، وذاك لايزكيه، وهذا يزكى عروض التجارة، وهذا لايزكيها، وهذا يزكى حلى النســاء، وذاك لايزكيه، وهذا يشــترط النصاب، وذاك لايشــترط، وهذا وهذا، إلــى آخر مــا تناولته الآراء فيمــا تجب زكاتــه ومالاتجب، وفيما تصرف فيه الزكاة وما لاتصرف.

هل من سبيل إلى كلمة سواء؟

لست أشك فى أن مركز الزكاة فى الإِسلام، هو مركز العنصرية الدينية الاجتماعية، ولســت أشــك فى أن وحدة المســلمين فى واجباتهــم الدينيــة والاجتماعيــة التى أخذ الله بهــا عليهم العهد والميثــاق تقضى على علمائهــم وأولياء الأمر فيهم بالمســارعة إلى إعادة النظــر فيما أثر عن الأئمة من موضوعات الخلاف التى أخشــى أن تمس أصل هــذه الفريضة، ويكون ذلك النظر الجديد على أســاس الهدف الــذى قصده القــرآن من افتراضهــا وجعلها

واجبًا دينيًا، تكون نسبة المسلمين فيه وفى جميع نواحيه على حد سواء.

ولايخفى على أحد معنى كلمة (أموال)، ولا معنى كلمة (فقراء ومساكين)، ولا معنى كلمة (فى سبيل الله). فالذهب والفضة، أو النقد التعاملى كيفما يكون، والزروع والثمار، والمواشى، وعروض التجارة، وكل ما يتموله الإنسان فى هذه الحياة أموال، وكل من ليس عنده ما يكفيه ويسد حاجته، أو من ليس لديه قدرة على العمل فقير ومسكين، وكل ما ينتفع به المسلمون كافة، ولاتخص منفعته شخصًا بعينه (سبيل الله).

الجهات التى تصرف الزكاة لها وفيها:

٧ - وقد نزلت فيها آية كريمة، حددت دائرتها، ومنعت أن يصرف شىء من الزكاة خارجها، وهى قوله تعالى فى سورة التوبة التى كانت من أواخر القرآن نزولاً:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾

(التوبة: ٦٠)

دفع الطمع المالى والشره المادى بعض المنافقين المليئين، إلى النيل من الرسول والطعن عليه فى قسمة الصدقات إذا لم يعطهم منها:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ (التوبة : ٥٨)

ثم نزلت آية المصارف السابقة ترسم الدائرة التى تصرف لها وفيها الزكاة، وبهذا التحديد انقطعت أطماع المنافقين فى الحصول على شىء من الزكاة، وتعينت الحلقات المذكورة فى الآية محلا لصرفها لا يجوز الخروج عنها، بتشريع الله الحكيم الذى شرع الزكاة، وجعل لها مكانتها فى الدين وهدفها فى المجتمع.

ومن هنا نعلم مقدار «العنت الدينى» الذى يقع فيه هؤلاء الذين يستبيحون لأنفسهم أن يعملوا جهدهم في الحصول على أموال الصدقات، وعندهم من ذات يدهم ما يغنيهم عن التعلق بها، أو التطلع إليها وكذلك نرى مقدار العنت الذى يقع فيه من يمد يده بإعطائهم منها، أو يسهل لهم سبيل الحصول عليها، وهو يعلم أنهم ليسوا من دائرة الاستحقاق التى رسمتها الآية الكريمة.

وإذا كان أكل أموال الأفراد بالباطل منكرا وجريمة عند الله، فكيف بأكل مال الله الذى هو مال الأمة، وحق المحتاجين الضعفاء؟

وبالنظر فى الآية، يتضح أن دائرة الاستحقاق فى الصرف إليها من الزكاة تتألف من حلقتين:

إحداهما: أفراد، يعطون الزكاة فينفقونها على الوجه الذى يرونه، وهذه الحلقة هى التى أضيفت الصدقات إليها فى الآية بكلمة «اللام» الفقراء، والمساكين، العاملون عليها، المؤلفة قلوبهم، الغارمون، ابن السبيل.

والحلقة الأخرى مصالح عامة تنتفع بها الأمة كلها، وهذه الحلقة هى التى أضيفت إليها الصدقات بكلمة «فى»: الرقاب، سبيل الله.

الحلقة الأولى

الفقراء والمساكين:

وأول ما ذكرت الآية من أفراد الحلقة الأولى: «الفقراء والمساكين» والوصفان يدلان على الحاجة الحقيقية إلى ما يقوم بالمعيشة وسد العوز، وإن كان أحد الوصفين وهو «المسكنة» أشد فى الدلالة على ذلك من الآخر.

والفقراء والمساكين أجدر الأفراد وأحقهم بالصدقات، وقد خصهم الإسلام مع هذا بالإطعام الذى شرعه فى أجزية الأخطاء التى يقع فيها المؤمنون، ككفارة اليمين، والقتل الخطأ، والإفطار فى رمضان، والاعتداء على محظورات الإحرام والحرم، كما جعل لهم حقا فى الغنيمة والفىء. ثم جعل إهمالهم وعدم الحض على طعامهم آية من آيات التكذيب بالدين:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ① فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ② وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ (الماعون: ١-٣)

وإنما عنى القرآن بالفقير والمسكين هذه العناية البالغة، نظرًا إلى أنهما الصنف الذى قلما يخلو منه مجتمع، والذى يغلب أن تكون حاجته ليست آتية من قبل نفسه وسوء تصرفه،

ثــم هو الصنف الذى يهدد ـ بحاجته وثورة فاقته، وضيق صدره ـ المجتمع فى أمنه واستقراره، وبالزكاة تسد حاجته، ويطهر قلبه مــن الحقد والحســد، وبذلك يمهد له طريق التعــاون مع إخوانه الأغنيــاء الذين شــعر منهــم بالرحمة والعطــف، فتحفظ الأموال وتنمو، ويصان المجتمع ويقوى.

تحدى الفقر والمسكنة:

غيــر أن هذا الصنف كثيــرًا ما يقع فيه الاشــتباه. يتزيًّا بأهله الحقيقييــن من تســول له نفســه البطالة، ويســتهين بماء وجهه فيمد يده بالســؤال، ويتخذ من التسول حرفة، بها يتعيش، وبها للمــال يجمع. فهــذا وأمثاله ليســوا فى واقعهــم إلا أرباب نهب وســلب عن طريق اســتخدام الغش والخديعة عن حقيقة أمرهم، ليسوا إلا عناصر هدم لكرامة الأمة الإسلامية التى يجب أن تعيش وحداتها على أساس من العزة والعفة والعمل.

إن هذا الصنف من الناس الذى نزع نفسه من الكرامة نزعا كثر فى هذه الأيام، وتفنن فى مظاهر العجز ودواعى الســؤال، فمنهم مــن يتعارج، ومنهم من يتعامــى، ومنهم من يقوس ظهره، ومنهم مــن يزعــم أنه خرج من المستشــفى وليس معه أجــرة القطار ولا أجــرة المأوى، ولا ثمــن الخبز. وفى الحق أن هذا الصنف وصمة عار فى جبين المجتمع الإســلامى الكريم. وجدير بالمصلحين، القائميــن علــى كرامــة المجتمع أن يضعــوا لهؤلاء حــدًا يحول بينهم وبين التسكع فى الطرقات، ومواقف المركبات، وأضرحة

الأولياء والميادين العامة، وسيجد هؤلاء المصلحون إذا ما عنوا بهذا الشأن جيشا جرارا من هؤلاء، به تنتفع البلاد، وبه يتقون الخطر فى الأمن، والخطر فى الكرامة.

العاملون عليها:

وذكرت الآية من الأفراد الذين تصرف الزكاة لهم (العاملين عليها) وهم الموظفون الذين تضاف إليهم جباية الزكاة ممن تجب عليهم، وقد كان هذا نظاما متبعا فى صدر الإسلام والعهود التى احتفظت للزكاة بنظامها الخاص فى التحصيل والتوزيع، وكان به يستحق العامل أجرة عمله من نفس مال الزكاة، وقد دالت الأيام وتغير الوضع: أهمل جانب الزكاة، فلم يعد لها نظام جباة، وبذلك نستطيع أن نقرر أن هذا الصنف قد سقط من دائرة الاستحقاق إلى أن يعود للزكاة نظامها ويعين لها جباتها، وهذا من وقف النص لعدم محله، وليس من نسخه لعدم صلاحيته.

المؤلفة قلوبهم:

وذكرت الآية من الأفراد الذين تصرف لهم الصدقات (المؤلفة قلوبهم) وهم يتناولون ضعفاء الإيمان الذين تخشى عليهم الردة عن الإسلام إذا لم يعطوا، ويتناولون من يرى أهل الرأى أنهم موضع إعانة لقضاء مصالح المسلمين الهامة. وقد

رأى بعـض الفقهاء سـقوط هـذا الصنف من دائرة الاسـتحقاق، ويذكرون كلمة (عمر) التى وافق عليها الأصحاب جميعا وهى: (كنا نؤلف حين كان الإسلام فى ضعف، أما الآن وقد عز وقويت شوكته فلا حاجة بنا إلى التأليف).

والواقـع أن تَصَـرُّفْ عمر بالنسـبة للمؤلفة قلوبهـم لم يكن نسـخا للحكم، حتى يستمر سـقوطهم من دائرة الاستحقاق إلى الأبـد، وإنما هو «تطبيـق لوصف الاسـتحقاق» إن وجد الوصف وجد الاسـتحقاق، وإن عدم عدم، وقد عدم فى زمن عمر، فمنع استحقاقهم [٢٣]. وليس من ريب فى أن حاجة المسلمين اليوم فى دفع الشـر عنهم ماسـة إلى تقوية ضعفائهم، والاستعانة بكل ما ينفع فى رد العدوان والبغى.

وإذا كان خصومنـا قـد لجأوا إلـى هذا، وأعلنوا مشـروعات «التأليـف والمعونة» التى يخدعون بهـا المترددين منا، ويؤلبون بها الأعداء علينا، فنحن لا نسد على أنفسنا هذا الباب وقد فتحه القـرآن لنا على مصراعيه، وأورده بكلمـة واضحة تحمل معناها وتـؤدى غايتها، وإذن فالـذى كان من عمر والأصحاب هو وقف لإعطائهم فى زمنهم، وليس نسخًا للحكم كما قيل!!

(٣٢) فهي من الرسالة.
(٢٠) ولا فرق فى ذلك بين أحاديث الصحيحين وغيرهما: انظر مسلم الثبوت والتحرير.

الغارمـــون:

ذكـرت الآيـة مـن الأفـراد الذين تصـرف إليهـم الصدقات (الغارميـن) وهم الذيـن لحقتهم ديون بسـبب تحملهم لتبعات ماليـة لبعـض المصالح العامـة، كإصلاح ذات البيـن أو لحقتهم بسبب كساد فى تجارتهم أو مصانعهم التى كان يعود منها النفع على الأمة.

وليس من هذا الصنف من لحقته الديون بفساد أخلاقه أو سوء تصرفه. والصرف من الزكاة إلى الغارمين يرجع إلى تفريج كربة المكروب، التى أرشـد الإسـلام إليها ورغب فيهـا، وهم يعطَون منها بقدر ما يقضى ديونهم، ويرد إليهم معنويتهم فى الحياة.

ابن السبيل:

وابن السبيل هو المسافر الذى انقطع عن بلده وبعد عنه ماله، واحتاج إلى مال فى إتمام مهمته والرجوع إلى وطنه، ويصدق هذا العنوان على الذين يقومون من تلقاء أنفسهم وبأموالهم برحلات كشـفية إلى البلاد الإسـلامية لدراسـة أحوالها، وتوثيق الروابط بينها. وليس منه المسـافرون بقصد النزهـة والرياضة فى البلاد الأجنبيـة الذين يصرفـون أموالهم فى غير أوطانهـم، لا لحاجة، سوى الشهرة والمتعة.

***

الحلقـة الثانيـة

وهـى الحلقـة التى أضيفت فيهـا (الصدقة) إلى مسـتحقيها بكلمـة (فى) وقد ذكرت منها الآية ناحيتين، لا تملك إحداهما ما يصرف فيها من الصدقات.

فـى الرقـاب:

وأولاهمـا الناحية المذكورة بقولـه تعالى: ﴿ وَفِي ٱلرِّقَابِ ﴾ فـإن الـذى يملك فيها هو سـيد العبـد الذى يبيعه لمـن يريد أن يشتريه ليعتقه، أو الذى يقبض بدل الكتابة للعبد ليحرره.

وهذه الناحية قد انقرض أفرادها بانقراض الرق الذى يتشوف إليه الإسـلام ولكن فيما أرى قد حل محله الآن رقٌّ هو أشد خطرا منه على الإنسـانية، ذلكم هو اسـترقاق الشـعوب فى أفكارها، وفى أموالها وسـلطانها وحريتها فى بلادها؛ كان ذاك رق أفراد، يموت بموتهم، وتبقى دولهم حرة رشيدة، لها من الأمر والأهلية مـا لسـائر الأحرار الراشـدين. ولكن هذا رق شـعوب وأمم، تلد شعوبا وأمما هم فى الرق كآبائهم، فهو رق عام دائم، يفرض على الأمة بقوة ظالمة غاشمة!!

وإذن، فمـا أجدر هذا الـرق بالمكافحة والعمل على التخلص منـه، ورفع ذله عن الشـعوب، لا بمال الصدقـات فقط، بل بكل الأموال والأرواح.

وبذلـك نعرف مقدار مسـئولية أغنياء المسـلمين عن معونة الشعوب الإسلامية .

سبيل الله:

أمـا الناحيـة الثانية مـن ناحيتى الحلقـة الثانيـة ، فهى ناحية (المصالـح العامـة) التـى لا ملك فيهـا لأحد ، والتـى لا يختص بالانتفـاع بها أحـد ، فملكهـا لله ، ومنفعتها لخلـق الله . وأولاها وأحقهـا : التكويـن الحربى ، الـذى ترد به الأمـة البغى ، وتحفظ الكرامـة ، ويشـمل العـدد والعـدد على أحـدث المخترعـات البشـرية ، ويشـمل المستشـفيات عسـكرية ومدنية ، ويشـمل تعبيـد الطرق ، ومـد الخطوط الحديدية ، وغيـر ذلك مما يعرف أهـل الحـرب والميدان . ويشـمل الإعداد القـوى الناضج لدعاة إسـلاميين ، يظهرون جمال الإسلام وسماحته وينشرون كلمته ، ويبلغـون أحكامه ، ويتعقبون مهاجمة الخصـوم لمبادئه بما يرد كيدهـم إلى نحورهم وكذلك يشـمل العمل على دوام الوسـائل التى يسـتمر بها حفظة القرآن الذين تواتـر ـ ويتواتر ـ بهم نقله كما أنزل من عهد وحيه إلى اليوم ، وإلى يوم الدين إن شاء الله .

والكلمة « سبيل الله » على وجه عام كل ما يحفظ للأمة مكانتها المادية والروحية ويحقق شعائرها على الوجه الذى به تتميز عن غيرها ، وتقضى به حاجتها من نفسها .

هـذه مصارف الـزكاة على الوجه الذى نفهمـه من كتاب الله ، ولا يعفينـى فى هذا المقام ما نقرؤه فى كتب الفقه والأحكام من تخصيـص « سـبيل الله » بأفـراد معينين أو جهـات معينة ، ولا من وجوب اسـتيعاب صرفها لجميع الجهات التى ذكرت فى الآية ، فـإن الآية لم تذكر إلا بيانًا لمواضع الصرف لا لتعميمها ، وكلمة « سـبيل الله » ظاهرة فى العموم للمنافـع العامة ، ولا وجه لحملها على الأفراد فضلا عن تخصيصها بفرد دون آخر .

وعلـى أولي الرأى والشـورى أن يقدموا فـى الصرف ما يرون أهميته من هذه الجهات عما سواه .

الصـــوم

١- والصوم هو : العبـادة الدينية الثانية ، وهو الامتناع عن الأكل والشـرب ، والملابسة الجنسـية طول النهار ـ من الفجر إلى غروب الشـمس ـ بقصد امتثال أمر الله . وقد فرضه الله فرضًا عامًا على جميع القادرين فى شهر رمضان من كل عام .

آيات الصوم فى القرآن:

وقد جمع القرآن آيات الصوم فى مكان واحد ، وفى إطار واحد من سورة البقرة فقال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ (البقرة : ١٨٣ - ١٨٥)

المسئولية التضامنية:

٢- هذه هى آيات الصوم من سورة البقرة، وسورة البقرة قد شرع الله فيها كثيرا من أحكام الإيمان، ومن سنة القرآن أن يخاطب بأحكام الإيمان ـ عبادات أو معاملات ـ أمة المؤمنين الذين استجابوا للرسول وآمنوا بدعوته، وهو بذلك يأخذهم جميعا بمسئولية تضامنية فى إقامة تلك الأحكام، والنزول على مقتضاها فى عباداتهم ومعاملاتهم، وراء مسئوليتهم الشخصية الفردية، وبتلك المسئولية التضامنية، يسأل المؤمن فيما يختص بهذه الأحكام عن نفسه، ويسأل عن أهله وذويه، وسائر إخوانه المؤمنين، ولا يرفع عن المؤمن مسئوليتها إلا إذا قام بها فيما يختص بنفسه، فصام وصلى وحج، وابتعد عما حرم الله، وفيما يختص بغيره، فأمر ودعا، وحذر ونهى، وقد كان هذا من مظاهر الوحدة التى بنى الإسلام ـ على أساس منها ـ شرائعه وأحكامه.

الصوم عبادة قديمة:

٣- والآية الأولى من هذه الآيات:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ (البقرة: ١٨٣)

تصرح بأن الصوم عبادة قديمة كتبها الله وفرضها على الأمم السابقة، وفى الواقع أنه شأن عرفه الإنسان من قديم الزمان، عرفه المتدين وسيلة من وسائل التقرب إلى الله، وعرفه الوثنى طريقا من طرق التهذيب والرياضة. وإذن، فهو ليس خاصا بطائفة دون طائفة ولا برسالة دون رسالة، وربما كان شأنا فطريا يشعر بالحاجة إليه فى فترات متتابعة أو متفرقة كل كائن حى، وإن اختلفت صوره وأوقاته باختلاف العصور والأمم.

الصوم الذى يريده الله:

٤- وقد جرى على ألسنة الناس أن الصوم هو الإمساك عن الطعام والشراب، والملابسة الجنسية، وبهذا يظن كثير من المسلمين أن الإنسان متى أمسك عن هذه الأمور الثلاثة طول يومه فقد صام وخرج عن عهدة التكليف وأدى ما فرضه الله عليه.

والواقع أن هذا بيان الصوم بالنسبة إلى مظهره وإلى الجانب السلبى منه فقط. وكلا الأمرين: المظهر والجانب السلبى لا يكونان حقيقة الصوم الذى كلف الله به عباده وفرضه عليهم، فإن الله سبحانه بدأ آية الصوم بقوله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وختمها بقوله ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ وبقوله ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ وفيما بين البدء والختام أمر بالصوم ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾.

وليس من ريب فى أن النداء بوصف الإِيمان أولاً، وهو أساس الخير ومنبع الفضائل، وفى ذكر التقوى آخرًا، وهو روح الإِيمان وسر الفلاح إرشاد قوي، ودلالة واضحة على أن الصوم المطلوب ليس هو مجرد الإِمساك عن الطعام والشراب، وإنما هو الإِمساك عن كل ما ينافى الإِيمان ولا يتفق وفضيلة التقوى والمراقبة.

وإذن فالذى يتجه إلى غير الله بالقصد والرجاء لا صوم له، والذى يفكر فى الخطايا ويشتغل بتدبير الفتن والمكائد، ويحارب الله ورسوله فى أمة المؤمنين، لا صوم له.

والذى يطوى قلبه على الحقد والحسد والبغض لجمع كلمة الموحدين، والعمل على تفريقهم وإضعاف سلطانهم، لا صوم له.

والذى يحابى الظالمين، ويجامل السفهاء ويعاون المفسدين، لا صوم له.

والذى يستغل مصالح المسلمين العامة ويستعين بمال الله على مصالحه الشخصية، ورغباته وشهواته، لا صوم له، وكذلك من يمد يده أو لسانه أو جارحة من جوارحه بالإِيذاء لعباد الله، أو إلى انتهاك حرمات الله لا صوم له، فالصائم ملاك فى صورة إنسان لا يكذب ولا يرتاب ولا يشى ولا يدبر فى اغتيال أو سوء، ولا يخادع، ولا يأكل أموال الناس بالباطل.

هذا هو معنى الصوم الذى يجمع صورته وهى الإِمساك عن المفطرات، ومعناه هو تقوية روح الإِيمان بالمراقبة وبهذا

يجمع الصائم بصومه بين تخلية نفسه وتطهيرها من المدنسات ، وتخليتها وتزكيتها بالطيبات ، وإلى ذلك يشير الرسول ﷺ بقوله : «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه» وقوله : «ليس الصيام من الأكل والشرب وإنما الصيام من اللغو والرفث» ، وحسبنا فى ذلك أن نذكر قوله تعالى :

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة : ٢٧)

حكمة فرضية الصيام:

٥- ولم يكن جانب الحرمان من الطعام والشراب ، وهو الهدف الذى قُصد بافتراض الصوم على المسلمين ، وإنما هو كما قلنا ، مظهر مادى للصوم تكمن وراءه حكمته الحقيقة وهى غرس خلق المراقبة وخلق الصبر فى نفوس المؤمنين ، وبهما تصدق النية وتقوى العزيمة فيثبتون لحوادث الدهر ، وما يعترضهم من عقبات ، وفى الحياة نوازع الشهوة والهوى وفى الحياة دوافع الغضب والانتقام ،وفى الحياة التقلب بين النعماء والضراء ، وفى الحياة النزوح عن الأوطان ومفارقة الأهل وفى الحياة الذود عن الحمى والكرامة .

فى الحياة كثير من الخطوب والمشاق التى تعترض الإنسان ، فما أحوجه إلى أن يتذرع بخلق الصبر ليثبت ويحتمل ، وما أحوجه إلى أن يتقوى بخلق المراقبة ، والاستعانة بالله والرجوع إليه ، والاعتماد عليه ومن هنا فرض الله صوم رمضان وهو شهر من

اثنى عشر شهرا، متتابع الأيام، ليغرس بهذا التتابع ملكة الصبر والمراقبة. ثم جعله فى كل عام، ليتكرر الدرس وينمو الغرس. ومن هنا أيضا وجب على الصائم أن يستمر فى كل ليلة من ليالى هذا الشهر، متذرعا بالصبر متقويا بالمراقبة، فلا يسرف فيما كان محظورا عليه بصومه حتى لا ينطفئ عليه مصباح الإشراق القلبى الذى أحسه فى نهاره ولا ينقطع عن التتابع الروحى ويعود إلى شره وطغيانه.

بهذا تتحقق حكمة الله فى التعبد بالصوم، ويكون الصوم مددًا قويا لجند الخير فى الإنسان. به يزكو القلب وتصفو النفس، وتتهذب الروح ويصير الإنسان منبعا فياضا للخير على نفسه، وعلى بنى وطنه وجنسه، ويعيش عيشة راضية سداها المحبة والوئام، ولحمتها التعاون والسلام، وبهذا يقترب من الملأ الأعلى، ويتلقى التكاليف الإلهية والواجبات الاجتماعية، بقوة لاتعرف الضعف وثبات لايعرف الملل، وإخلاص لايعرف الرياء، وإيمان لايعرف الشك، فتطيب الحياة ويسعد الناس.

مظاهر اليسر فى الصيام:

٦- وقد بينت الآيات بعد هذا أن الله نظر فى فريضة الصوم على المؤمنين إلى ما يطرأ عليهم من أعذار يشق عليهم معها أن يصوموا، فرخص للمريض والمسافر الإفطار فى رمضان واكتفى منهما بالقضاء فى أيام الصحة والإقامة:

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾

(البقرة: ١٨٤)

والذى أرشد إليه فى هذا المقام هو أن قوله تعالى: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ تجعل رخصة الإفطار خاصة بمن يباشر السفر بالفعل، أى أثناء ارتحاله. أما بعد أن يصل إلى مقصده ويقف به السير، فإنه يجب عليه أن يعود إلى الصوم. ولو كان فى غير بلده، وليس الأمر كما يظن الناس أن الرخصة ثابتة للمسافر ما دام بعيدا عن وطنه إنما هى خاصة بزمن السفر ومباشرته كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾.

ومن وجوه اليسر فى الصوم بعد هذا أن الله أباح للأصحاء المقيمين الذين يشق عليهم الصوم ويجهدهم جهدا شديدا، ويعرضهم للخطر، كالشيوخ والحوامل والمراضع، الإفطار فى رمضان، ونظرا إلى أن هؤلاء قد لا يدركون أياما يستطيعون فيها القضاء، قد اكتفى منهم أن يطعموا مسكينا واحدا عن كل يوم، وهذا هو المستفاد من قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ ومعنى ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ يتحملونه بشدة ومشقة، من قولهم: «فلان يطيق حمل الصخرة العظيمة، حيث يحتملها بشدة وهم لا يقولون «فلان يطيق حمل الورقة» إذ إنها ليست مظنة لشدة ولا مشقة.

حكمة تخصص رمضان بفرض الصيام:

٧- وقد جاء قوله تعالى :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ (البقرة: ١٨٥)

مشيرا إلى الحكمة فى اختيار هذا الشهر لهذا الصوم المفروض، وهى أنه الوقت الذى ظهرت فيه النعمة الكبرى التى يجب أن تشكر ـ وهى نعمة البدء بإنزال القرآن على النبى ﷺ ـ ولا ريب أن القرآن من أقوى ما يطهر القلب ويسمو بالأرواح، وناسب ذلك أن يكون الشكر من جنس النعمة فى المعنى والأثر، عبادة تطهر القلوب وتسمو بالأرواح وهى الصوم.

يسر التكاليف الإسلامية:

ثم ختمت الآيات بقاعدة تشريعية عظيمة، وهى أن تكاليف الله لعباده، لم يقصد منه إرهاق ولا تعسير، وإنما قصد منه التقوى والتطهير، ولذلك بنى على اليسر والبعد عن العسر، مع المحافظة على الإكمال والإتمام، وتعظيم الله على هدايته وشكره على نعمته : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٥)

الحـــج

١- الحج عبــادة معروفة، تنتظم من الإنســان قلبه وبدنه وماله، وليــس ذلك لغيرها مــن العبادات، يقوم بها المســتطيع من المســلمين فى زمن معلوم، وأمكنة معلومة، وامتثالاً لأمر الله وابتغــاء مرضاته، وتبتدئ تلك العبادة بنية الحج خالصا لله، مــع التجرد من الثياب المخيطة، ومن صنوف الزينة والترف وتنتهى بالطواف حول بيت الله الحرام.

الحج قبل الإسلام:

٢- والحــج بمعنى زيارة أمكنة مخصوصــة، ابتغاء التقرب للإله المعبود صورة قديمة من صور العبادات، اتخذتها الشــعوب والقبائل رمزا لإجلال معبوداتهم وتقديسها.

قام بهــا المصريــون، واليونانيون، واليابانيــون وغيرهم من الأمم القديمة إلى الهياكل المقدسة عندهم.

وكانــت كل أمــة تتخذ فى حجهــا ما ينــاســب تخيلها لعظمة معبودها، واســتمرت الحال على هذا حتى هيأ الله الأمر لإبراهيم عليه السلام، وأمــره ببناء البيت الحرام بمكة ليطوف الناس به ويذكروا اسم الله فيه:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٧)

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (الحج: ٢٦، ٢٧)

لبى إبراهيم عليه السلام أمر ربه، فبنى بيته، وطهره ودعا الناس إلى حجه، وأسكن عنده من ذريته، ومن ذلك الحين اتجه العرب إلى البيت الذي بناه إبراهيم، يحجونه ويعبدون الله فيه بما رسم الله، وظلوا كذلك يحجون بيت الله ويعظمونه حتى بعث الله محمدًا ﷺ، غير أنهم بتطاول القرون غيروا في الحج وبدلوا كثيرًا مما كان عليه في زمن إبراهيم: فأشركوا بالله الأصنام والأوثان، ورفعوها على ظهر البيت، وجعلوا حوله نطاقًا منها، وتوجهوا إليها واستعانوا بها، واتخذوها شفعاء عند الله، وذبحوا لها، وذكروا اسمها على ما يذبحون. وكذلك أحدثوا في كيفية الحج تقاليد معينة تبعًا للأهواء، فطافوا بالبيت عرايا، وحرموا على أنفسهم الدسم وما وراء القوت من الطعام، وترفع فريق منهم عن الوقوف مع الناس بعرفة، والإفاضة منها اعتقادًا منهم أنهم فوق الناس جميعًا؛ لأن بيدهم ولاية البيت، فلا ينبغي وهم كذلك أن ينزلوا بمستوى العامة، ويأخذوا أنفسهم بقوانين الناس، ويقفوا معهم في صعيد واحد ولو كان في موقف العبادة لله الواحد القهار. هكذا غير العرب في الحج وبدلوا.

محمد يجدد دعوة إبراهيم:

٣- جاء الإسلام بعد ذلك يجدد دين إبراهيم، ويحيى دعوته: دعوة الحق والعبادة الصحيحة:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ١٦١)

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ (الحج: ٧٨)

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

(البقرة: ١٣٠)

جاء الإسلام هكذا مجددًا لدين إبراهيم، وهو الدين عند الله، فوجد القوم يحجون إلى الكعبة بما أحدثوا وغيروا؛ فتركهم يحجون كما اعتادوا، وقصر الرسول جهوده على الدعوة إلى إقرار التوحيد فى القلوب، وإفراد الله بالعبادة والاستعانة حتى أُخرج هو وصحبه من مكة موقع بيت الله الحرام، وحيل بينهم وبين القيام بفريضة الحج، وظلوا يكافحون فى سبيل الله حتى تجلت منهم آثار التضحية الخالدة، وعرف فيهم الشوق المبرِّح لزيارة بيت الله الذى حُرموا النظر إليه والطواف به؛ فجاءتهم البشرى بأنهم سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله، آمنين، مُحلقين رءوسهم ومقصرين.

وفى حرارة هذا الشــوق، وضوء هذه التضحية أعاد الله عليهم ذكــر الحج وأنــزل آياتِ كثيرة شــرح بها أحكامــه، وبيَّن أوقاته وآدابــه، وأصلح ما أفســد القوم فيه، ورده إلــى عهده الأول عهد إبراهيــم وإســماعيل. ومــن ذلك الحين قــام المســلمون بتنفيذ فريضة الحج الذى فرضه الله على الناس من عهد إبراهيم، وقد تم علــى أيديهم تطهير البيت مــن هذه الأصنام، وأمر أرباب العظمة الزائفــة أن يقفــوا مع الناس فــى عرفات، وأن يفيضــوا من حيث أفاض الناس تقريرا لمبدأ المســاواة الذى جعله الله بين عباده.

زمن الحج وحكمة اختياره:

٤– عيــن الإِســلام لأداء فريضة الحج أشــهرًا معلومة من الســنة العربية هى: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة؛ وشوال ــ وهو الشهر الذى يعقب رمضان ــ له فى الوضع الإِسلامى اعتباران قويان جديران بالتقديــر والرعاية وذلك لما لهما من أثر فى اســتدامة التقويــم الخلقــى، والتصفية الروحيــة التى حصل عليها المسلم بالصيام، والقيام فى شهر رمضان.

وأول هذين الاعتبارين أن شــوالا أول شهر من أشهر الحج.

وثانيهما أنه بشــير بالأشــهر الحرم (ذى القعدة وذى الحجة والمحرم).

وقــد عنــى القرآن الكريم بأشــهر الحج عنايتــه بالحج، كما عنى بالأشــهر الحرم، عنايته بتطهير النفس من المظالم، وكف

العدوان والبغى، ولفت أنظار المؤمنين إلى ما لهذه الأشهر كلها من بواعث البر والتقوى، بواعث الترفع بالنفس عن مواطن الإثم والطغيان، وانتقاص الحقوق والواجبات؟ ففى أشهر الحج يقول:

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾
(البقرة: ١٩٧)

رحلة بعد رحلة:

وإذا كان المؤمنون بانتهاء رمضان عادوا إلى دنياهم من رحلة روحية، تعلقت فيها قلوبهم بمولاهم، وعظمت بها مراقبته فى نفوسهم، حتى امتنعوا فى أيامه ـ لله وفى سبيل الله ـ عما أبيح لهم من مقومات الحياة، فإنهم بدخول شهر شوال، يملأ قلوبهم الشعور باستئناف رحلة أخرى، يشارك الروح فيها البدن؛ ويهرع إليها القادر عليها تاركا وراءه أهله وماله ووطنه، متحملا فى سبيل ربه عناء السفر ووعثاء الطريق لا لشىء من حظوظ النفس، إلا أن يقف لله عبدا خاشعاً ملبياً أمام بيته معترفا بالتقصير، ملتمسا منه المعونة والرضوان، حتى إذا ما فرغ من ذلك واطمأن إلى حسن وقفته، عاد إلى وطنه آمنا مطمئنا. قويا فى الأخذ بنفسه وبأمته إلى سبيل الهدى والرشاد، وقد أرشد

القــرآن إلى ما يضمــن للمؤمنين هــذا الهدف الســامى من تلك الرحلة :

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ (البقرة : ١٩٧)

وهــذا جانــب التخليــة والتطهير من المدنســات النفســية، والمفرقــات الاجتماعية، أما جانب التحليــة بالفضائل المزكية للنفــوس، المؤلفة للقلوب، المقربة إلى الله فإنك تراه فى قوله :

﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ﴾ (البقرة : ١٩٧)

الأشهــر الحــرم:

٥- وإذا كان شــوال باعتباره أول شــهور الحــج، يثير فى نفوس المؤمنيــن ذكريات الحج ويتمثلون به وبأخويه «ذى القعدة وذى الحجة» الطــواف ببيت الله الحــرام، والوقوف بمكان الضراعة الخالصة بعرفات والمشعر الحرام، فتهفو القلوب إلى تلك المشاهد، منابع الوحى والنور، وتتجرد من دنياها، وترحل إلى مولاها، متقلبــة فى هذه الحرمة المكانية ـ فإنه باعتبــاره الثانى ـ وهو أنه بشــير بالأشــهر الحــرم، يثير فى نفوســهم مرة أخرى، يستقبلونها بشــهر ذى القعدة، وهى حرمــة زمنية، قصد بها من قديــم تأمين الطريق لأداء الحج، وزيارة الله فى بيته الحرام، وهى فى الوقت نفســه تغرس فى

القلـوب عوامل الأمـن والطمأنينة، تلكم الحرمـة الزمنية، هى حرمة الأشـهر الحرم، ذات القدسـية التـى نوه الله عنها فى كتابه :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ ﴾

(التوبة : ٣٦)

وقـد عرض القـرآن كثيراً إلى قدسـية الأشـهر الحرم وجعل المحافظة عليها بالبعد عن القتال وسفك الدماء وسائر المظالم والخيانات، من شـعائر الله التى وجه إليهـا الأنظار توجيها عاما شاملا فى الأزمنة كلها، وفى الرسالات كلها :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ ﴾ (التوبة : ٣٦)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾

(المائدة : ٢)

حرمتان تربويتان:

وبحرمتى الحج، والأشهر الحرم، كان لله فى تربية عباده وتدريبهم على الخير حرمتان :

حرمـة مكانيـة : دائرتها البيـت الحرام والبلـد الحرام، وقد اتسع نطاق هذه الحرمة حتى شملت الحيوانات :

﴿لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞ﴾ (المائدة : ٩٥)

وشـملت الأشجار، «لا يختلى خلاها، ولا يقطع شوكها».

وحرمـة زمنية: ميقاتها الأشـهر الحرم، تجتمـع حرمة ثلاثة منهـا «ذى القعدة وذى الحجة والمحرم» مـع الحرمة المكانية، وتنفرد حرمة رابعها، وهو «شـهر رجب» كمذكر فى أثناء السنة بحرمـات الله التـى لا ينبغى أن يغفل عنها المؤمنون.

ومنهج التربية بتحريم الزمان والمكان، شرع إلهى قديم أقره الإسلام وربط به بين المؤمنين الأولين والمؤمنين الآخرين، وهو فى واقعه لأهل العصر الواحد فرصة تهيئ لهم ـ لو آمنوا به ونزلوا على مقتضاه واتبعوا شرع الله فيه ـ حسن التفاهم والعمل على قطع أسباب الخلاف والتخاصم، وعلى إقرار الأمن والسلام، هو بمثابة هدنة إلهية يتدبر الناس فيها شئونهم فيعرفون مهمتهم فى الحياة، من حسن التعمير وإسعاد البشرية على أسس من المحبة والتعاون، وبذلك يكفون عن العدوان، وعن الجشع المثير للحروب، القاضى على الهناءة والاطمئنان، المفسد لخلافة الإنسان فى الأرض.

حكمة تحريم الزمان والمكان:

٦- إن الله خلق الخلق على سليقة واحدة، تدفعهم ـ بحكم ما ركب فيهم من قوتى الغضب والشهوة فى كثير من الأحوال ـ إلى التحاسد والتقاطع، إلى القتل والتخريب، وإلى السلب والاستعلاء، فاقتضت الحكمة الإلهية أن يكون لهم رادع

ينبع احترامه من ضمائرهم، ومن هنا عظم البيت الحرام فى قلوبهم، وملأ بهيبته نفوسهم، وضاعف فى حرمته جزاء المنحرفين.

ولما كان البيت الحرام فى مكان مخصوص لايدركه كل مظلوم، ولا كل الناس، ولا ينال حظه من الأمن فيه إلا من ارتحل إليه، ولم يكن من الممكن أن يرتحل إليه جميع سكان المعمورة فى وقت واحد، لهذا جعل الأشهر الحرم ملجأ أمن عام، تنشر على الناس وهم فى أقاليمهم وأقطارهم ألوية الأمن والاطمئنان، ويدخلون بها فى هدنة الرحمن الرحيم، فقرر كذلك فى القلوب حرمتها، فيها تسكن السيوف فى أغمادها، وتتجه القلوب إلى ربها، وفيها يتضاعف الجزاء لمن أحسن أو أساء وفى ذلك يقول:

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ (المائدة: ٩٧)

إذا آمن الإنسان بهذه الهدنة الإلهية، وانفعلت نفسه بشرائع ربه، وعالج نفسه فى ظلها وهى أربعة أشهر من اثنى عشر شهراً، صار ولا شك إلى فسحة وراحة واتسع أمامه مجال العمل والسياحة، واستطاع الاتصال بنى الإنسان، وكان معهم فى أمن واطمئنان، متعاونين على البر والتقوى، عزوفين عن الإثم والعدوان.

مناسك الحج:

٧- للحج مناسك وأفعال تلقاها المسلمون جيلا بعد جيل عن نبيهم ﷺ الذى قال: «خذوا عنى مناسككم» وهى:

الإحرام، والتلبية، والطواف بالبيت، والسعى بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفات والمشعر الحرام «المزدلفة» ورمى الجمار، وذبح الهدى.

وقد ربط كثير من الناس أنفسهم فى أفعال الحج بشخص، وكثيراً ما يكون مستأجراً لذلك، وليس لديه من معانى الحج سوى ما تلقفه سمعه من الحكايات المتوارثة عن الحجر الأسود، من جهة بياضه وسواده، ومن جهة أصله الذى نزل منه، وغير ذلك مما يكثر دورانه على ألسنة الحجاج، ويشغلون به عن تفهم روح الحج وأسراره، ويقعون به فى قبضة ذلك المستأجر، يطوفون بطوافه، ويسعون بسعيه، ويفرغون وسعهم فى تحرى محاكاته فى كل ما يصدر عنه من حركة أو سكون.

ومن الخير أن يعرف الحجاج مناسك الحج بأنفسهم، ويمرنهم أهل العلم على فعلها فى ندوات تعقد لذلك فى الأحياء المختلفة، ليدخلوا الحج وهم فاهمون متمرنون.

الإحرام:

وأول ما يفعله الحاج، نية الحج خالصًا لله سبحانه، والله لا يقبل من عبده حجًا يتخذه ستاراً لما يريد من سُمْعَة زائفة أو

متاع زائل، وما الحج إلا هجرة، ولا قيمة لهجـرة قصـد بهـا غير الله.

وهذه النية هى المعروفة باسـم «الإِحرام» وله شعاران: شعار مرئى صامت، وهو التجرد من المخيط المفصل على الجسـم أو العضـو، وعن مظاهر الترف الجسـمى كالتزين بالطيب، وحلق الشـعر أو قصه، وعن كل ما حذره الله بقوله:

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾

(البقرة: ١٩٧)

وشعار مسموع ناطق، وهو «التلبية» وهى رفع الصوت بكلمات «لبيك اللهم لبيك». والحاج يسجل على نفسه بهذا الشعار، أنه فى مكان السمع لأوامر الله، وفى مكان المسارعة إلى إجابته الدائمة فيها، وأنه سبحانه، وهو صاحب الملك والنعمة، لا يحمد ولا يشكر ولا يجاب أحد سواه.

وللإِحرام مكان معين يعرفه الحاج وهو فى طريقه إلى مكة، ويختلف هذا المكان باختلاف مواقع الأقطار الإِسلامية من مكة، وأهل كل قطر يعرفون مكان إحرامهم بالعمل المتكرر المتواتر، ومكان إحرامنا، معشر المصريين، هو المكان المعروف «برابغ» ويكون الإِحرام ناقصًا إذا أخره الحاج عن مكانه، ولكن له أن يقدمه عليه ولو من بيته فى بلده.

طواف التحية:

وإذا وصل الحاج إلى مكة قصد البيت الحرام، وحيا الله فيه بالطواف، حوله سبعة أشواط. وهذا الطواف يعرف باسم طواف «التحية والقدوم» ويبدؤه الحاج من ركن الحجر الأسود، وهو حجر طبيعى من أحجار مكة، وضعه إبراهيم عليه السلام فى مكانه، تعيينًا لمبدأ الطواف حتى لا يضطرب الطائفون بين المبدأ والمنتهى، وليس له من تكريم سوى تكريم الذكرى المحببة للنفوس بالنسبة للأسلاف المصلحين، وقد قال فيه عمر بن الخطاب كلمته المأثورة: «إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك لما قبلتك» ولكن لبعض الناس فيه معتقدات تدفع بهم إلى تزاحم مهلك، يأباه الإسلام، فى سبيل تقبيله والتمسح به.

السعى بين الصفا والمروة:

وإذا انتهى الحاج من طواف القدوم خرج إلى الصفا وسعى بينه وبين المروة سبعة أشواط، يبدأ بالصفا وينتهى بالمروة. والسعى بينهما مظهر من مظاهر الالتجاء والتردد بجانب بيت الله ـ بعد الطواف به ـ طلبًا للمغفرة، والتماسًا للعفو. وفيه بعد ذلك، استحضار لذكر الحالة التى كانت عليها السيدة هاجر وهى تطلب الماء والسقيا لها ولولدها إسماعيل، فعرفت منبعه وقضت به حاجاتها، ثم كان سببًا فى عمارة هذا الإقليم وامتلائه

خيرًا وبركة. ولله قبل هذا وذاك أن يتعبد عباده بما يشاء بعد أن سكنت قلوبهم إلى أنه المعبود، كما تعبدنا فى الصلاة بالاتجاه إلى الكعبة، وفى الدعاء إلى السماء.

التحلل من الإحرام:

وللحاج بعد أن يتم سعيه بين الصفا والمروة أن يبقى محرما حتى يخرج إلى عرفه، وهذا مستحسن لمن ليس عنده وقت متسع. أما من كان لديه متسع من الوقت فله أن يتحلل من إحرامه بالحلق أو التقصير، وتكون الأعمال الماضية «الإحرام والطواف والسعى» عمرة له ثوابها. وعليه فى تلك الحالة أن يذبح «هدى التمتع» وهو المذكور بقوله تعالى:

﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾

(البقرة: ١٩٦)

ويجوز له أن يذبحه بمجرد تحلله، ولا يجب تأخيره إلى يوم النحر، كما لا يجب أن يكون ذبحه فى منى، وهذه مسألة يكثر الجدل فيها هناك بين أتباع المذاهب وبين الحجاج بعضهم وبعض. ولو ذبح المتمتعون بعد تحللهم وهم فى مكة لخف تكدس اللحوم فى منى الذى كثرت منه الشكوى، وحاول به بعض الناس تغيير شرع الله فى الهدى باستبدال النقود به.

الوقوف بعرفة:

وإذا تحلل المحرم من إحرامه، بقى حلالا بمكة حتى

اليوم الثامن من ذى الحجة، فيحرم بالحج كما أحرم فى المرة الأولى، ويذهب إلى عرفة عن طريق منى بحيث يكون بها فى اليوم التاسع، ويؤدى هناك فرض الوقوف بعرفة، والمقصود به الحضور مع التذكر والذكر، ولو قاعدًا أو مضطجعًا، ويكفى فى صحة الوقوف، الحضور بعرفة فى أى وقت من أوقات اليوم التاسع، من ظهره إلى طلوع فجر اليوم العاشر. غير أن مَدَّ الوقوف إلى جزء من الليل أكمل وأتم. والصعود على الجبل المعروف بعرفة «بجبل الرحمة» ليس بشرع حتى يتهافت الناس عليه، ويعرضوا به أنفسهم لخطر السقوط.

والوقوف بعرفة أهم مناسك الحج، حتى ورد عن الرسول «الحج عرفة» فهو موقف الضراعة الصادقة، موقف التجرد من الحول والقوة، موقف البعد عن المظاهر المادية، فيه تشرق عليهم ذكرى الماضى بأنوارها الوهاجة، فيستمعون بآذان القلوب إلى صوت الرسول محمد ﷺ؛ يخطب آباءهم فى أصلابهم؛ يحمل لهم رسالته، ويحثهم على صدق الإِيمان، وكمال المعرفة بحقوق الله وحقوق العباد، وفيه تتم رسالة السماء الأخيرة، وينزل عليه قوله تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ (المائدة: ٣)

الوقوف بالمزدلفة:

وإذا أتم الحاج الوقوف بعرفة، اتجه إلى المزدلفة، وهى

المذكورة فى القرآن باسم «المشعر الحرام» ويصبح فى منى فى اليوم العاشر «يوم النحر» وفيه يرمى جمرة العقبة بسبع حصيات، يأخذها من أى مكان شاء، ويحلق أو يقصر، ويذبح إن كان عليه ذبح، ويطوف طواف الإفاضة، والحاج مخير فى تقديم أيها شاء، وقد ثبت أن الرسول عليه السلام لم يسأل عن تقديم شيء منها أو تأخيره، إلا كان جوابه «افعلوا ولا حرج».

وله أن يؤخر طواف الإفاضة إلى ما بعد أيام النحر التى ترمى فيها الجمار الثلاث.

رمى الجمار:

ورمى الجمار على العموم، ليس بفرض يبطل الحج بتركه، وإنما هو مطلوب على سبيل الوجوب، فى جمرة العقبة التى ترمى وحدها فى اليوم العاشر، وعلى سبيل السنة فى بقية الأيام.

ورمى الجمار رمز عملى، يعلن به الحاج تصميمه على ترك نوازع النفس الشريرة، وتكريره تأكيد لهذا التصميم، وللحجاج أن ينتهزوا فرصة أيامه فيجتمعوا ويتشاوروا فى منافعهم، ولا أساس لما يصور به بعض الناس هذا الرمى، ولا اعتداد به فى حكمة تشريعه!

طواف الوداع:

وإذا أكمل الحاج أعماله، وطاف طواف الإفاضة، وأراد الرجوع إلى بلده، قصد البيت الحرام، وطاف به طواف الوداع،

وهو بمثابة استئذان فى الانصراف وتجديد عهد الولاء، والإقامة على تلبية الله فى شرعه ودينه، وبه يكمل الحج، ويرجع الحاج إلى أهله مزودا بالتقوى، طاهرا من الذنوب والآثام:

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ١٩٧)

الهدى من شعائر الله:

الهدى: اسم للحيوان الذى يهدى باسم الله إلى الحرم، يذبح فيه، ويطعم منه الفقير والمسكين:

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الحج: ٣٦)

وقد أرشد القرآن إلى الروح الذى يتقبل الله به الهدى، وهو روح الإخلاص وتقوى الله، شأن كل التكاليف لا تكفى صورتها:

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾

(الحج: ٣٧)

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٢٧)

والتقرب إلى الله بذبح الهدى فى الحرم، وإطعام الفقراء منه شرعة قديمة، تعبد الله بها عباده الأولين، وفيها إحياء لسنة إبراهيم، وتذكير بنعمة الله عليه وعلى الناس بفداء ولده

إسماعيل من الذبح الذى ابتلاه الله به، إظهارا لقوة إيمانه.

وهكذا ينبغى أن يكون إبراهيم وولده إسماعيل للمؤمنين المثل الأعلى، الذى يجب أن يتحلوا به فى جميع الأجيال والعصور، وقد استمر التقرب به إلى الله كما رسم، وكما فعل إبراهيم، حتى انحرف به القوم فيما انحرفوا به من مناسك الحج. فذبحوا تقربا للأصنام. كما فعلوا بالتلبية، وقد خلصه الرسول محمد ﷺ، من شوائب الشرك وجعله باسم الله وحده، كما خلص التلبية وجعلها لله وحده، وبين أن الهدى يكون من الإبل والبقر والغنم، وشرط أن يكون سليما من العيوب التى تفسد اللحم، أو تقزز النفس:

﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ﴾ (البقرة: ٢٦٧)

«إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا».

الهدى فى القرآن:

وقد عرض القرآن للهدى فى ثلاث سور: سورة البقرة، والمائدة، والحج. عرض له فى تلك السور من جهات ثلاث:

أولاً: جهة التنويه بشأنه: طلبه وطلب الإخلاص فيه لله، وجعله من شعائره التى تجب المحافظة عليها، ويحرم إهمالها وإحلالها، ففى سورة الحج: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن

شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ (الحج: ٣٦)

وفى سورة المائدة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ ﴾ (المائدة: ٢)

ثانيًا: جهة الحالات التى يطلب فيها، وهى: حالة الإحصار، وهو المنع عن إتمام الحج، وهى المذكورة بقوله تعالى فى سورة البقرة:

﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ﴾ (البقرة: ١٩٦)

وقد طلب فيها عينًا متى تيسر، ولم يخير بينه وبين غيره، كما لم يجعل له بدلاً عند العجز عنه.

وحالة الاعتداء على الإحرام بفعل محظور من محظوراته، وهو المذكور بقوله تعالى:

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ (البقرة: ١٩٦)

وقد طلب هنا على سبيل التخيير بينه وبين غيره من صوم أو صدقة.

وحالة التمتع بالتحلل من العمرة إلى الحج، وهو المذكور بقوله:

﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ ﴾ (البقرة: ١٩٦)

وقد طلب هنا على أن يكون له بدل عند العجز.

وحالة الجناية على الحرم بقتل صيده، أو قطع شجره، وهو المذكور بقوله تعالى فى سورة المائدة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا ﴾

(المائدة: ٩٥)

وقد طلب هنا كما طلب فى حالة الاعتداء على الإحرام، على سبيل التخيير بينه وبين الطعام أو الصوم.

وكما عرض القرآن للهدى من جهتى التنويه بشأنه والحالات التى يطلب فيها عينًا أو تخييرًا، عرض له من جهة المكان الذى يذبح فيه:

﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴾ (الحج: ٣٣)

﴿ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ ﴾ (المائدة: ٩٥)

﴿ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ ﴾ (البقرة: ١٩٦)

والمراد، الحرم كلية، وقد صح عن الرسول أن منى كلها منحر، وأن فجاج مكة كلها منحر.

أما الوقت الذى يذبح فيه، فهو على العموم أيام النحر الثلاثة، أو مع أيام التشريق كلها، فيدخل اليوم الرابع، وليلاحظ هنا أن تعيين الوقت إنما هو لغير هدى الكفارات والنذر؛ لأنه لا يتقيد بوقت. كما يلاحظ أن هدى التمتع يجوز أن يقدم ذبحه على الوقوف بعرفة بعد الإِحرام بالحج أو قبله بعد التحلل من العمرة.

الأسرار التى تنطوى عليها هذه المناسك:

٨- ولكل عمل من أعمال المناسك سر ينطوى عليه، ومعنى يرمز إليه، يجب أن يلتفت إليه المسلم، وهو يؤدى صورة هذه الأعمال.

فما الإِحرام فى حقيقته ـ وهو أول المناسك ـ إلا التجرد من شهوات النفس والهوى، وحبسها عن كل ما سوى الله، وعلى التفكير فى جلاله.

وما التلبية إلا شهادة على النفس بهذا التجرد، وبالتزام الطاعة والامتثال.

وما الطواف بعد التجرد إلا دوران القلب حول قدسية الله، صنع المحب الهائم مع المحبوب المنعم، الذى ترى نعمه، ولا تدرك ذاته.

وما السعى بعد هذا الطواف إلا التردد بين علمى الرحمة التماسًا للمغفرة والرضوان.

وما الوقوف بعد السعى إلا بذل المهج فى الضراعة بقلوب مملوءة بالخشية. وأيـد مرفوعة بالرجاء، وألسنة مشغولة بالدعاء، وآمال صادقة فى أرحم الراحمين.

وما الرمى بعد هذه الخطوات التى تشرق بها على القلوب أنوار ربها، إلا رمز مقت واحتقار لعوامل الشر، ونزغات النفس، وإلا رمز مادى لصدق العزيمة فى طرد الهوى المفسد للأفراد والجماعات.

وما الذبح وهو الخاتمة فى درج الترقى إلى مكانة الطهر والصفاء إلا إراقة دم الرذيلة بيد اشتد ساعدها فى بناء الفضيلة، ورمزًا للتضحية والفداء على مشهد من جند الله الأطهار الأبرار.

هذا هو معنى الحج فى حقيقته ومعناه، والعبادات كلها وإن اختلفت صورها، تلتقى عند غاية واحـدة، وهو تحقيق معنى العبودية لله، بالإخلاص فى طاعته، والتوجه إليه وحده والاستعانة به وحده، والتخلص من سلطان الحظوظ البشرية المظلمة.

ولكن الحج لزمنه اللافح قيظه وزمهريره، وأمكنته الناطقة بنور الله وهديه، وأفعاله التى يرجع بها المؤمنون إلى وحدتهم الطبيعية، القارة فى وجدانهم:

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم : ٣٠)

إنسانية عابدة، أمـام أحدية معبودة ـ أقواها وأعمها فى تحقيق معنى العبودية والإخلاص لله، لهذا جعل عنوان الشروع

فيه، والشعار الذى يصحبه فى جميع مراحله، فيوجه القلب إلى الله، ويصرفه عما سواه. هذا النشيد الربانى الذى ينزع النفس من ملكوت الأرض إلى ملكوت السماء، يسجل به المؤمنون على أنفسهم، أسمى معانى الإخبات والخضوع والاستجابة لنداء مولاهم.

يسجلون به على أنفسهم الاعتراف بوحدانية الله وأحديته فى الملك والسلطان، فى الفضل والإنعام، فى التدبير والتصرف، فى استحقاق الفضل والثناء: لبيك اللهم لبيك، فأنا الواقف ببابك، المتسمع لأوامرك، المسارع لإجابتك، والمقيم عليها دون تحول أو تردد، وأنت الواحد الأحد، الذى تلبى دعوته، وتهرع النفوس إليه، أنت الواحد الأحد، رب النعمة التى لا تحصى ولا تكفر، رب العزة التى لا تذل، رب القوة التى لا تعجز، رب السلطان النافذ فى السماء والأرض، سبحانك، لا إله إلا أنت: «لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك، والملك لا شريك لك».

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾
(الأنعام: ١٦٢)

الحج مؤتمر إلهى كريم:

٩- والحج باعتبار مكانته فى الإسلام، وغايته المقصودة منه للفرد والأمة، جدير أن يتجه إليه رجال العلم والرأى، ورجال التربية والثقافة، ورجال النظام والإدارة، ورجال المال

والاقتصاد ورجال الشرع والدين، ورجال الحرب والجلاد.

جدير أن تفد إليه الطبقات ذات الرأى والحزم، ذات النظر والاجتهاد، ذات الإيمان الصادق والأهداف السامية، التى يجب أن يقصدها المسلمون فى حياتهم، جدير أن يتجه إليه هؤلاء جميعًا، فنراهم وقد نشرت عليهم مكة أجنحتها، وجمعتهم بكلمة الله، حول بيت الله، يتعارفون، ويتشاورون، ويتعاونون، ثم يعودون إلى بلادهم أمة واحدة، متحدة القلب، متحدة الشعور والإحساس.

الأفئدة فى دعوة إبراهيم:

ولعل فى هذا مايكشف لنا عن المراد بالأفئدة التى جاءت فى دعوة إبراهيم ›، حينما أكمل البيت ورفع قواعده، وأسكن من ذريته بواديه:

﴿ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ (إبراهيم: ٣٧)

فإن كلمة أفئدة، لا تعنى مجرد الأشباح التى تروح وتغدو، والتى لا تعرف من معنى الحج، سوى أعماله الفردية، وسوى زيارة الرسول ﷺ، وإنما تعنى الأرواح والقلوب التى تقدر ما يجب أن يكون لهذا الاجتماع الحاشد ـ فى أمكنة الذكريات الأولى، وفى ظل عبادة الله ـ من أهداف تجمع قلوب الموحدين على خطط الحياة العزيزة، كما جمعت أشباحهم العبادة والذكريات.

شهود المنافع:

ولعل هذه الأهداف هى أول ما لفتت إليه الآية الكريمة التى تضمنت دعوة الناس إلى الحج:

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾

(الحج: ٢٧ - ٢٩)

فالمنافع التى جعل الحج سبيلا لشهودها والحصول عليها وهى أول ماذكر فى حكمة الحج ـ عامة مطلقة، لم تقيد بنوع دون نوع، ولا ناحية دون ناحية، وهى بعمومها وإطلاقها، تشمل كل ما ينفع الفرد والجماعة، ويصلح شأنهما فطهارة النفس، والتقرب إلى الله، منفعة، والتشاور فى رسم خطط العلم والثقافة، وفى جمع الكلمة على تركيز الدعوة، والعمل على إظهار الإسلام بسماحته وأحكامه الرشيدة، منفعة، وإعداد العدة لنسج خيوط الشخصية الإسلامية ثوبًا واحدة منفعة، وأى منفعة وامتلاء القلوب بمبدأ المحافظة على تلك الشخصية من التحلل والذوبان، منفعة، وهكذا تتعدد المنافع وتتنوع على حسب متقضيات الأحوال التى توحى بها الأزمنة ومواقف الناس من الناس.

طيش عالمى يجب اتقاؤه:

ولقد جدت فى البشرية آراء ومذاهب فى الدين، والاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، وبدت فى آفاق القوة الغاشمة، أسلحة جديدة أعدت للتخريب والتدمير وترويع الإنسانية، وتجلت مطامع الجشع الإنسانى فى صورها البشعة الكريهة.

ولابد ـ احتفاظًا بدعوة الحق، دعوة السلام والإصلاح الإلهى ـ أن يكون للمسلمين بإزاء هذا الجديد، اجتماع عام شامل، يحددون فيه موقفهم ويشهدون به منافعهم التى تقيهم، وتقى العالم، شر ذلك الطيش الذى يقضى على الأمن والسلام، ويلتهم الفضائل والتدين الحق.

وإذن، فمنافع المسلمين اليوم التى يتخذ الحج سبيلا لشهودها، لم تبق فى دائرتها الأولى، دائرة المنفعة الروحية الفردية التى عمادها فى الأذهان، مجرد فعل المناسك حول بيت الله الحرام، ألا وإن أبرز ماتصدق عليه كلمة «منافع» فيما بين المسلمين، أن تتحد كلمتهم وشعورهم فيما يجب أن يتخذوه ـ بحكم دينهم وإيمانهم ـ أساسًا لحياتهم، وهو الاعتصام بحبل الله:

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾

(آل عمران: ١٠٣)

مقتضيات الاعتصام بحبل الله:

والاعتصام بحبل الله. يقضى أولا: بتنحية الشهوات والأهواء التى تثيرها بينهم العصبيات. القبلية، والجنسية، والمذهبية،

تلكم العصبيات التى دفعت وتدفع بهم إلى جمر التفرق عن سبيل الله الواضحة، وتجعلهم فلولا، يستعين ببعضها العدو المشترك على باقيهم، ويقضى على الجميع.

والاعتصام بحبل الله يقضى ثانيا: بالنظر السريع فى تنقية العقائد والأعمال بيننا، مما يشوبها من صور الشرك والابتداع، الأمر الذى هيأ لخصوم الإسلام أن يقولوا: إن الإسلام ليس دينًا واحدًا، وإنما هو أديان متعددة تختلف باختلاف الأقاليم والمذاهب، فلتركيا إسلام، وللعراق إسلام، ولإيران إسلام، ولباكستان إسلام، ولمصر إسلام، وبلاد المغرب إسلام، وللحجاز إسلام، وأى إسلام من هذه، هى إسلام محمد وإسلام القرآن؟ كبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلا كذبًا، فالإسلام وحدة فى العقيدة والعمل، تعرف عناصرها من كتابه البين الواضح، وماهذه المظاهر المختلفة التى نراها فى الجماعات الإسلامية إلا أثر من آثار الانحراف البشرى فى فهم المصادر بما توحيه العصبيات الكريهة، وما ينبغى أن تكون حالة المرضى الذين انحرف المرض بطبيعتهم، مصدرًا سليمًا لمعرفة تلك الطبائع، وإذن فعلينا، ونحن المرضى، أن نعالج أنفسنا من هذه العلة، حتى يعود إلينا النقاء والشفاء، وعندئذ تكون أحوالنا وشئوننا مصدرًا حقًا لقدسية الإسلام وصلاحه، كما هو واضح فى كتابه:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء: ٩)

والاعتصام بحبل الله يقضى ثالثًا: بالعمل الجاد السريع فى إبـراز أهـداف القرآن، بتفسير سهل واضـح، ويكون خاليا من الإسرائيليات، والخلافات المذهبية والتطبيقات العربية التى اتصلت به، وحشرت فى تفسيره حشرًا، شغل الناس بها، عن معرفة هدايته وإرشاده، وأن يطبع ذلك التفسير بلغات العالم المختلفة، ثم يوزع على سائر الأقاليم، ليتبين الناس عن كثب حقيقة الإسلام، ويعرفوا دعوته على وجهها الصحيح، وعندئذ تبوء بالإثم هذه الأقلام المأجورة على الدعايات السيئة، ضد الإسلام وجماله.

والاعتصام بحبل الله يقضى رابعًا: بوضع نظام محكم لنشر الدعوة الإسلامية فى أرجاء العالم، يكون أساسه الإعداد القوى لطائفة من الدعاة والمرشدين، مزودين بالنضج الفكرى والمعرفة الصحيحة، واللغات الأجنبية، وأساليب العرض الملائمة، وذلك وراء إلمامهم بمواقع البلاد التى يوجهون إليها، ونفسيات أهلها. وعقائدهم وتقاليدهم، وسائر شئونهم حتى يستطيعوا أن يتبوءوا فيما بينهم مكانة المواطن الحريص على خير مواطنيه، وأن يتخذوا فى دعوتهم إلى الخير سبيل الحكمة التى أمر الله بها فى كتابه.

والاعتصام بحبل الله يقضى خامسًا: بالنظر السريع الجاد فى تنسيق شئون الاقتصاد فى الشعوب الإسلامية، ويكون ذلك بتأسيس منظمة إسلامية اقتصادية مهمتها: تنظيم التبادل الاقتصادى، وسد حاجات الأمة الإسلامية، بعضها من بعض، حتى لا يكون للمستعمر، أثر فى اتخاذ هذا الجانب سبيلا لاستنزاف

ثروة البلاد الإسلامية وتثبيت أقدامه فيها، ثم الحيلولة بيننا وبين الحصول على ما يحفظ كياننا ويرفع مستوانا.

والاعتصام بحبل الله يقضى سادسًا: صونًا لهذه المبادئ، بالنظر فى تكوين قوة عليا. ذات تعليم واحد، وقيادة واحدة، على أحدث ما يعرفه أهل الحرب فى هذا العصر، لا لتخرب وتدمر، ولا لتستعبد ولا لتستعمر ولا لتسلب الناس أوطانهم وأموالهم وأمنهم، وإنما لتدفع شر الاعتداء، وتخلص الرقاب المسالمة من أيدى المعتدين الظالمين، ولا ريب أن قيام تلك القوة، المحوطة بقلوب المؤمنين، من أقوى وسائل السلم المسلح الذى أمر الله به وأرشد إليه فى كتابه:

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الأنفال: ٦٠)

هذه هى جهات المنافع التى تتوقف عليها حياتنا، والتى يجب أن نفسر بها الآن قوله تعالى فى حكمة الحج:

﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ (الحج: ٢٨)

وإن تفصيلها ورسم خططها والإيمان بها يتطلب اجتماعا فى ظل روحية صافية، وليس ذلك إلا فى اجتماع الحج ومؤتمره الإلهى الكريم.

أين مؤتمرنا السنوى؟

ليس لنا اجتماع سنوى عام يجب أن نهرع إليه من جميع الأقطار ـ بحكم الدين، لا بحكم المطامع، وبدعوة الأشخاص ـ سوى هذا الاجتماع.

ألا وإن مسارعة القادرين أرباب الرأى والحزم، إلى حضوره لمعالجة شئوننا لأجدى علينا وعلى الإنسانية كلها من مسارعتنا لحضور مؤتمرات لا يعرف من آثارها، سوى الاجتماع على موائد الطعام والشراب، وسوى تبادل التحيات وكلمات القدوم والانصراف. ثم يكون الانفضاض، والظلم هو الظلم، والاعتداء هو الاعتداء.

إن تشاركنا فى إعداد العدة لإبراز المنافع التى يقتضيها الاعتصام بحبل الله، لأجدى بكثير علينا وعلى ديننا، من إعداد العدة لمعرفة قوانين الغرب وفلسفة الغرب، وآداب الغرب، وتقاليد الغرب، فنحن لا نجنى من وراء ذلك كله قبل تركز حياتنا، سوى ضياع شخصيتنا والثقة بأنفسنا.

توجيه وتقريب:

ليس من المعقول ـ ولله الحكمة البالغة ـ أن يكون القصد من هذا الاجتماع مجرد أن يطوف المؤمنون بالبيت، وأن يقفوا فى عرفات، فإن الله يعبد فى كل مكان، ويجيب الداعى فى كل مكان:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ ﴾

(البقرة: ١١٥)

وإنما الحكمة كما أفصحت آية الحج، أن يجتمع الموحدون فى زمن واحد ومكان واحد، ليشهدوا منافعهم، وليزيلوا تفثهم. أما المنافع فسبيلها ما ذكرنا، وأما إزالة التفث، فليس الأمر فيها قاصرًا على إزالة أدران البدن من شعث السفر، وإنما

هو تنبيه بالأدنى، وهو درن البدن على الأعلى وهو درن العقل ودرن الأمة، فدرن القلب: وقوعه تحت ضغط الشهوة والهوى، ودرن العقل: وقوعه تحت ضغط الشكوك والأوهام، ودرن الأمة: وقوعها تحت سيطرة الجهل والفقر وتحت سيطرة الغاصبين.

وإذن، فإزالة التفث، تحلية عما لا ينبغى للفرد والأمة، وتحصيل المنافع، تحلية بما ينبغى للفرد والأمة، والحج قد شرعة الله، سبيلا لتلك التحلية، وهذه التحلية وهكذا كان الحج فى زمن الرسول، كان حينما خرج إليه المسلمون أول مرة فى السنة التاسعة تحت إمرة أبى بكر ‹، إذ تلا على بن أبى طالب ـ نائبًا عن الرسول ﷺ ـ أوائل سورة التوبة، وفيها تطهير البيت من المشركين، وكان حينما خرج إليه الرسول فى السنة التالية، العاشرة بعد أن نفذت مواد التبليغ الإلهى السابق وفيه سمعوا من الرسول ﷺ: «أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، فلا ترجعن بعدى كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض، وإنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعدى.. كتاب الله»[٣٢].

---

(٣٢) هذا هو الباب الأول من كتاب (الإسلام عقيدة وشريعة) للإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت. ص ٧ - ١٣٧ ـ طبعة دار الشروق ـ العاشرة ـ القاهرة سنة ١٤٠٠هـ سنة ١٩٨٠م.

الفهـــرس

القسم الأول

العقيدة

الباب الأول

الباب الثانى

القسم الثانى

الشريعة

الباب الأول : العبادات

الزكاة :

الحلقة الأولى :

الحلقة الثانية :